كود بلوو

Code Blue

مروان الغفوري

كود بلوو / رواية
مروان الغفوري
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج
هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧
موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف:
خالد السناوي
رقم الإيداع : ٢٠٠٨/٨١٩٨

كود بلوو

Code Blue

رواية

مروان الغفوري

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع



(١)

في يناير من ذلك العام البعيد، كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساءً.الخميس،١ يناير، ٢٠٠٨ ..

كان حقيقيّاً أني متّ في تلك الليلة. في الواقع وصلت إلى المستشفى بعد وفاتي بالفعل. ولا أتذكر ما إذا كنت قد متّ بالسكتة القلبية أو بشيء آخر، فأنا لا أعرف عن طرق الموت الساكت هذا غير أن نهايته واحدة، وهي أن يتوقف القلب عن الخفقان.

وهي نفس الفكرة التي كانت الشريفة زينب، جارتنا، ترددها دائماً :

الحياة لا تموت، لأنها بلا قلب.

وعندما يغادر الناس مجلسها اليومي وأتأخّر أنا كالعادة كانت تهمس بي:

جدّك بلا قلب، إنه يتجاوز المائة عام ..

وتبتسم بسأم.

وحتى عندما مات جدّي بعد ذلك بعام واحدٍ فقد كنتُ أقول لأصدقائي:

قبل موته بأسبوع قال لي: أنت أحب أحفادي إلى قلبي.

وهكذا مات بمجرّد أن امتلك قلباً. وكالعادة: مات عندما توقف قلبه.

وحتى إذا ما قلتُ لنفسي الآن أني متّ تلك الليلة بعد أن توقف قلبي عن الخفقان قبل وصولي إلى المستشفى، ففي الواقع كنت قد متّ فعلاً،وبشكل عملي، قبل ذلك بعام كامل.

لعام كامل امتلأت بيقين أسطوري يقول لي:

أنت ميّت بالفعل أيها الرجل.

ربما كان هذا هو السبب وراء لا مبالاتي وعدم اكتراثي لهمهمة الأطباء ساعة وصولي إلى المستشفى: إنه ميّت، ولأول مرّة لم أبكِ على نفسي، رغم أني كنتُ أنتحب كثيراً عندما أتخيل نفسي وقد متّ، و هاهي أمي وهي تنتحب عليّ، وأخواتي يصرخنَ:

انطفأ العالم بعدك ،ثم يغمى عليهنّ..

فتغرق عيناي بالدموع، ويرتجف صدري مثل لهب شمعة..فأصعد إلى سطح منزلنا الجبلي لأتأمل الشمس وهي تضيع بين الجبال، تاركة بين عيني شبح الواجبات المدرسية وطابور الغد الممل.

في تلك الليلة، فور وصولي إلى المستشفى، قام أحدهم بتمرير قطعة من القطن على قرنية عيني، وعندما لم يلاحظ أني حركت جفنيّ،مع أني أتذكر أني فعلت ذلك، سمعته يخاطب رفيقه بلغة هجينة:

المريض لا يبدي أي Corneal reflex.

ثم أضاء بؤبؤ عيني بكشّاف باهت، وبعد ثواني ارتفع نفس الصوت:المريض لا يبدي أي pupillary reflex.

سأله رفيقه: sure ؟

- of course

أردت أن أبتَسِم لأني فهمت قصده تقريباً،وأدركت أنه لم يكن دقيقاً في اختيار ألفاظه.فأنا ميت ولست مريضاً

بدليل أنه كان ينادي بما يسمى عند الأطباء "العلامات الأكيدة لموت ساق الدماغ." ويؤكد ذلك.

كان صوته الميكانيكي أحادي النغمة الخالي من أي عمق إنساني يرتفع وأنا أحاول من داخلي أن أثبت عكس ما يقول.أن أحرك ساق دماغي ولو قليلاً إلى الأمام،إلى الخلف،ناحية ضوء الكشّاف،باتجاه حركة قطعة القطن.. أردت أن أفعل شيئاً لأقول له:أنا ميّت باختياري فقط، وليس بقواعدكم البليدة أيها الأطباء،وباستطاعتي الآن أن أستجيب لأي محفّز مادي أو نفسي إذا حاولتُ،لكني أشعر بالاسترخاء..لقد تقيّأت كثيراً وأنا مرهق الآن.

لم أستطع أن أرفع صوتي بأفكاري هذه لأني لم أهتد إلى حيلة تمكنني من تحريك هذه الساق التي يتحدث عنها الأطباء،رغم أن معرفتي بمصطلحات الطب وبعض قضاياه الإجمالية لا بأس بها وتمنحني ثقة بذاتي عندما أتحدث في كل شؤون الحياة بما فيها الطب.

فقد كنت أحرص على حضور دورات الإسعافات الأولية والثانوية في اليمن، وتابعت لفترة لا بأس بها ما

ينشر من قضايا طبية عبر مجلة " العلــوم الأمريكيـــة" المترجمة.

وفي كل حال،وطيلة سنوات امتــدّت مــن مرحلـــة الثانوية حتى ما قبل تخرّجي من كليـــة الهندســـة،جامعة القاهرة، فقد كنت أقول لأصدقائي :

سأكون طبيباً عندما أتخرّج،

ونضحك.

كما عرفت الكثير من الاصطلاحات الطبية الأوليـــة من خلال قراءتي لكتاب في الإسعافات الأولية، باللغـــة الإنجليزية، قبل موتي بسنة ونصف.كـــان مـــن دفعنـــي لقراءته هو طبيب هنجاري يقيم في صنعاء حيث يعمـــل جرّاح عظام. كنت ألتقيه بصورة متقطعة أثناء زياراتي لأصدقائي في المستشفى الذي يعمل فيه.ذات مرّة ذكـــر اسم كتاب طبّي أمامي ونحن في معرض الحديث عـــن دولة الرعاية الاجتماعية في بريطانيا.في تلـــك الـــساعة عندما قلتُ لصديقي لايـــوش، الطبيـــب الهنجـــاري،أن بريطانيا تنفق على الرعاية الطبية ما يزيد علـــى ال٢٢

مليارَ جنيه استرليني،ولم أكن متأكّداً من صحّة معلوماتي، قال لي:

هل تصدق أن الملكة إليزابيث كتبت تصديراً ختمته بتوقيع جلالتها لكتاب طبّي عن الإسعافات الأوليّة.وهكذا قرأت أول كتاب طبّي بلغة إنجليزية،لأول مرة في حياتي،وهي المرة الأخيرة قبل موتي.وإذن فقد كانت الملكة إليزابيث هي السبب في تطوير معرفتي الطبية.وفيما بعد،عقب موتي بعام تقريباً، قلتُ لنفسي:

ماذا لو أن جدة الملكة إليزابيث،التي دمّرت الأسطول الأسباني " أرمادا"،كانت متصابية حقّاً وتحب الأطفال نصف الناضجين؟لن يعيبها ذلك،فاسمها ينظف نفسه تاريخيّاً حتى هذه اللحظة،ولا يفعل التاريخ مع جدّاتنا المحترمات مثل فعله معها.

أوغلتُ في شرودي:

مممم،هل يمكن لشيخي " أبو شهاب" أن يجيبني الآن، عن سؤالي: كم من الناس دخلوا الجنة بفعل التاريخ؟ وكم منهم أدخلتهم الجغرافيا؟

أبو شهاب، شيخي،لا يملك إجابات ناضجة على مثل هذه الأسئلة. فهو يعتقد،عندما كـان يعلّمنـي مـصطلح الحديث وأنا في المرحلة الثانوية قبل موتي بستة أعوام، أن الأسئلة الدقيقة تكفيها إجابة عامة.فمثلاً:ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه.

فإن هذه الإجابة كفيلة بحرق أي سـؤال،مهما كـان صاحبه.وأسرّ إلي ذات مساء بيقينه الدفين أن طريقه هو الطريق إلى الجماعة الأم،

إلى السفينة الناجية.

(هلك المتأخرون،هلك المتأملون)

ولما لم يهلكوا بعد خمس سنوات من دعائه،علمتُ أنه كان يكتب على باب المسجد بالطباشير:إنمّا نملـي لهـم ليزدادوا إثماً.وفي مرّة أخرى قال لي بأن السفينة التـي يعد هو أبرز راكبيها هي ذاتها سـفينة نـوح،رغم أنـه – كما أكّد لي – لا يؤمن بالمجاز في اللغة،وأن موقفـه هذا من المجاز هو موقف عقيدي أصيل متعلق باستكمال عدته الإيمانية.

ومع أني كنت أخاف منه كثيراً، وأخاف على نفسي من خوفي منه فقد كان يقول لي،وهو يشير إلى نفسه ومريديه:

لا يكرهنا إلا منافق قد علم نفاقه.

بيد أني بعد موتي لم أجدني خائفاً ولم أشعر بالأسى لأني لم أؤمن بكثير مما كان يقوله لي.أو على الأكثر لأني كنت أستهجن حديثه. لقد قلت له ذات مرة في إحدى دروسه: سامحني يا شيخي،أنا مضطرٌ لأن أرفض بعض تعاليمك.

إن بوجهك نوراً عظيماً، كما كنت تصف نفسك في الدرس،لكن القمر ليس في السماء الرابعة.القمر يدور حولنا،ونحن نزرع الأرض تحت علمه وبإشارته.

لسنا عبّاد قمر،نحن نعبد الله،ولا دخل لذلك بإيماننا أن القمر فوق الأرض وليس بين السماوات.

إيييه.. لطالما تمنّيتُ أني قلتُ له هذا الكلام.وبرغم أني أتحدث الآن عن الليلة التي مت فيها إلا أني أجد أنه

من المناسب أن أعرّج على شيخي أبي شـــهاب اليمنـــي الذي سقطت تعاليمه من ذاكرتي مثل حنطـــة الـــشتاء، واكتشفتُ فور موتي أنها لم تكن القنطرة الآمنـــة التـــي حدثني عنها.

أحب هذا التشبيه: مثل حنطة الشتاء، فهي الجملة التي ختم بها الفيلم البديع:Troy، في مـــشهد التعليـــق علـــى ســـقوط أبطـــال الإليـــاذة..أخيل،أجـــاممنون،هيكتور، بريسياس، برايان.

لماذا أتذكر دائماً الناس في لحظات موتهم؟

ربما لأني متّ كثيراً،وعشتُ ميّتاً لعام كامل.

لا أريد أن أنسى موقفي مع صديقي لايوش. فبعـــد أن أتممت قراءة الكتاب وقبّلت الصفحة التي يرقد توقيع الملكة إليزابيث في أسفلها.. شردت قليلاً،وقلتُ لنفـــسي: ماذا لو كان اسم جدّتي " إليزابيث" هل كنت سأموت بعد عامٍ ونصف من الآن،كما سيحدث لي بالفعل؟

– التاريخُ يحمي سلالته العظيمة،قلتُ لنفسي وتذكّرتُ أين قرأت هذه العبارة.

أعود إلى المستشفى،وتلك الليلة الباردة التي وصفتها لأصدقائي قبل أن أموت بنصف ساعة:

يبدو أن ثلاجة كونية قد انفجرت علينا.

وبعد أن تناوبنا ، كالعادة،غيبة العالم ونميمة الـدنيا، قلتُ لهم: صحيح،لماذا لا نفكّر في وجود ثلاجات كونية هي السبب وراء العواصف الثلجية التي تكتـسحنا مـن وقت لآخر، بدلاً من التفكير الرياضـي لعلـم الفـضاء وتعقيدات فيلم "the day after tomorrow"..

أو حتى فيلم " Vanilla Sky" بالتحديد فـي لقطـة الفيلم الأخيرة:عندما يقفُ البطل " توم كـروز"، الـذي أجريت له عملية تجميد لـ ١٥٠ في المستقبل، أمـام حبيبته التي توفّيَت منذ زمن وهاهي تتراءى لـه قبالـة عينيه وتمد ذراعيها، فيقول لها بصوت متهـدج: لـيس بمقدورنا أن نعيش معاً بعد الآن، فأنا متجمّد وأنتِ ميّتة.

حاول بعض أصدقائي تغيير سارية الحديث خوفاً من استسهال الخوض فيما لا نعرف، ولأنهم في الغالب لـم يكونوا قد شاهدوا هذين الفيلمين، خاصـة الفـيلم الأول

الذي حرص مخرجه على أن يجعل جزءً من مفاتيح توتره الدرامي في يد شخص هامشي ينام في أرصفة الشوارع في نيويورك مع كلبه ويرتدي قبعة مبقّعة بالأصفر والكحلي والوردي ..

لكني أعدت الحديث مع أصدقائي إلى أوله وقلت:

إذا مات أحدنا الآن فإنه سيبعث في الصيف القادم، أو سيموت في الصيف القادم.

أعارني بعضهم قليلاً من الانتباه،فواصلتُ: إن درجة البرودة هذه كفيلة بتحنيطه.

خلايا الجسم لن تكون بحاجة إلى أي جهد لأنها ستصبح معطّلة بفعل التبريد. ما رأيكم لو دخلنا في ثلاجة كبيرة تصل درجة حرارتها إلى ٥٠٠ تحت الصفر؟ سنتوقف فجأة عن الحياة.. حسناً، لنترك رسالة على باب الثلاجة:

أرجوكم لا تفتحوا باب الثلاجة قبل ٥٠٠ عام من التاريخ المدوّن أدناه : ١-١-٢٠٠٨م

هل فعل أصحاب الكهف مثل ذلك؟ هل دخلوا في كهف من الجليد واستيقظوا بعد عشرات الأجيال من البشر؟

اشتبكت أحاديثنا، خاصة بعد وصول الشاعر محمود إمبابي، والقاص عادل زكريا. لقد جاء محمود بحكاية مثيرة عن صديقه الذي أصابته نوبة قلبية هذا الصباح.. بينما عرض علينا مصطفى سيد مجموعة من النصوص الشعرية التي جمعها من الإنترنت، لنقوم بحفلة " الشواء العظيم" كما يسميها صديقنا الشاعر خالد.

بعد نصف ساعة من وصول عادل زكريا، وكان آخر من يصل، أحسست ببرودة شديدة تمشي تحت جلدي.

تقيأت بشدّة، وعرقتُ بصورة عجيبة. أصاب أصدقائي فزع رهيب. أجلسوني على الأرض، قام أحدهم بتنظيف الطاولة من القيء، فيما انشغل آخرون بتنظيف وجهي وقميصي وزوايا فمي.

كنّا ستة أصدقاء نجلس في واحد من لقاءاتنا الأسبوعية المعتادة في قهوة شعبية بوسط البلد. نحنّ إلى

كل الأشياء التي نتركها بإرادتنا، ونفضل الحـديث فـي السياسة لأننا لم نشترك ولا لمرة واحـدة فـي العمـل السياسي. وعندما نتحدث عن الشعر فإننا نادراً ما نتبادل الحديث عن قصائدنا. وفي المرّات النادرة التي كنا نفعل ذلك، كنا نجامل أنفسنا ونتنبأ لبعضنا بمستقبلات شعرية مخيفة، وعندما نلتقي بصورة ثنائيـة نغتـاب قـصائد الغائبين منّا بشراسة.

هدأت نوبة القيء للحظات، فقلت لأصدقائي :

تسمم غذائي ..

وبلهجة شخصية من الأزمنة الروائية لمكسيم غوركي طمأنتهم: إنه قدر البروليتاريا يا رفاق.ضحكوا بـصدق، وتمنّوا لي السلامة كعادتنا مع بعضنا. الآن تأكـدوا أن الحالة ليست أكثر من تسمم غذائي.

أغمضت عيني وأنا أستعد للمغادرة متكئاً على كتـف مصطفى سيد، وخلفي كان صـوت محمـود إمبـابي، صديقي الشاعر والطبيب، يقول: أصابتني نفس الحالـة

من التسمم الغذائي منذ أسبوعين، بعد أن تناولـــت ســـتة سندوتشات كبدة في حي الحسين.

وبين أصوات ضحك مختلفة،هي جزيـــرة أصـــدقائي التي أعرفها،سمعتُ :

ستة سندوتشات كبدة نظيفة تكفي لإحداث تسمم غذائي في حي الحسين بأكمله.

في محاولة لإيقاظي، أو ربما للتأكد من أنني لم أفقـــد وعيي كلّيةً، بينما أنا ملقٍ رأسي على كتفه الأيمن فـــي التاكسي، قال لي مصطفى سيد :

يبدو أن الثلاجة الكونية أغلقت الآن وانفتح فرن كوني رهيب.

وضحك بصوت أراده أن يكون عالياً، فبدا لي واهناً على نحو أسقطني إلى الأسفل أبعد وأبعد.صمتَ قلـــيلاً، وضع كفه على جبينه ثم على خدي في حركة يبدو أنـــه أراد من خلالها مقارنة حرارتي بحرارة جسمه :

جسمك شديد البرودة.

لم أكن متأكدا مما إذا كنت بالفعل أسمع صوته، أم أن هذا الصوت هو قادم من داخلي كما كان يحدث معي دائماً طيلة السنوات التي قضيتها في القاهرة.

فقد عشتُ هنا في القاهرة منفرداً، وحبيبة نائية يفصلني عنها قول ابن عربي:

أيها المنكح الثريا سهيلاً.. عمرك الله كيف يلتقيان!
هي شامية إذا ما تبدّت، وسهيل إذا ما استهل يماني.

وكنت أناجي نفسي كثيراً في الليالي الطويلة، حين يقسمني البرد إلى ثلاثين شطيرة ،فأسمي نفسي صعلوكاً، ويسوعاً،ومطروداً، مثل الإسكافي السكران جار أبي حنيفة، حتى أفقد لذة الغناء وأدخل في نوم آخر.

كان دخان يصعد في صدري مثل غمام المحيط، وركبتاي ملتصقتين بظهر الكرسي المجاور لكرسي السائق. وكنت أجزّ على شفتي السفلى لأغلق نافذة الصراخ.. كان خوفٌ يصعد من الداخل،من مكان عميق لا يبدو أنه عضوي صرف.

ألم عنيف يدفع شفتي إلى أمام وجهي مثل ريح عاتية نشأت للتو في مكان سحيق. فقدت القدرة على التركيز.

سمعت نفسي أقول بعجز غريب وأنا أتلاشى وأدخل في طي هذه الريح التي تلتقفني:

مصطفى.

– نعم يا أمير

– يـــااااه.. أرجوك،أســمِعني أغنيـــة المـــلاح القـــديم، لكوليردج.

– ليذهب كوليردج إلى الجحيم. ليس الآن وقته

– لا، الآن وقته، وقت الملاح القديم، التائه، وقت سفينة طرفة ابن العبد، وقت مركب كوليردج، وقـــتُ الملـــك الضليل..

مااااء، مااااء في كل مكان،ولا قطرة للشرب.

هنا ذبلت حتى المنتهى، وكانت آخر مرة يرد فيهـــا مصطفى على ندائي، وبدأت أرى من جديد.

بدأت الألوان تختلف والأصوات تصلني مركّبة وغير مألوفة. المعاني غير تلك التي كنت أسمعها منذ قليل.كأن مصطفى كان يضع يده على جبهتي، وكنت في الداخل، في المكان البعيد في صدري حيث تعوّدت أن أنام وأصحو بمفردي.. كنت أتمايل وأسقط.

رأيت نفسي أهوي مثل سلّة قنابل، ثم أطفو كخرقة بالية. كنت وحدي في هذا التسامي الفاقع، وكان صوت مصطفى يحاول أن يمسّني بروحه الناعمة :

كأن حدوج المالكية غدوةً .. خلايا سفينٍ بالنواصف من ددِ.

رأيت وادي " دد " وقوافل المالكية، والسفن التي تخيلها طرفة ابن العبد، ومتاهة كوليردج.

رأيت الملك الضليل وهو يهتفُ من خلف شباك تاريخ مليء بالتراب:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه

وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما

نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

لا أتذكر كم استمرّت لحظة السقوط هذه بيــد أنهــا اختفت كلّية فور وصولي للمستشفى.

– لقد فعلها مصطفى، أفقتُ في أسفل موتي ..

– من المؤكّد الآن أنه لم يصدق رواية التسمم الغــذائي هذه.

" أرجووكم، أريد أن أطفو الآن. أوشكت أن أصِل إلى ذاتي العُليا".

قلتها فهبطت إلى داخلي من جديد بمجــرّد أن امــتلأت عيناي بضوء المستشفى، وفاض الموت على رئتي.

(٢)

في تلك الليلة،الخميس،١ يناير، ٢٠٠٨ .. أعني الليلة التي متّ فيها قبل أن أصل إلى المستشفى..
كانت السماء شديدة الدنو، وكانت الأرض بعيدة للغاية. وباستثناء ضحكات أصدقائي الأخيرة التي ما زالت تتساقط من مسامات جسدي وتمسحها الممرضة بخرقة بيضاء، وأنا ملقى على سرير متحرك في غرفة الطوارئ .. باستثناء هذه الضحكات فلا شيء آخر بمقدوره أن يشدّني إلى أزمنة ما قبل هذه الساعة.
فور وصولنا، كان صديقي مصطفى يجيب عن أسئلة الأطباء المتلاحقة والمشتتة :
كم مضى عليه من الوقت وهو في هذه الحال؟
كم عمره، هل يدخن، يتناول أدوية للسكر أو لارتفاع في ضغط الدم، هل يتعاطى أي نوع من المخدرات، هل ..وصديقي يجيب بأنه لا يعلم، أو أنه ليس متأكداً، فيما عدا تأكّده من أني أدخّن السجائر والشيشة.

قلت له وأنا أحاول أن أبتسم: شيشة كريز

لم يلتفت إليّ. إنه لم يسمعني، في الواقع،وفي لحظات كان جسمي عاريا تماماً، وكان الطبيب يطلب من الموجودين مغادرة الغرفة. لقد أنجزت الممرضة مهمتها.

بصراحة لستُ متأكداً مما إذا كانت تعرية جسدي بالكامل عملاً ضرورياً في تلك الساعة.

وضع الطبيب سمّاعته على صدري، قرّب أذنه اليسرى من فتحة أنفي، شد شعرات صدري بقوة وهو يصرخ بي: هل تسمعني، أين نحن الآن؟

سأل مصطفى : ما اسمه؟

- أمير

شد شعر صدري بعنف، أحسست معه أن لعاباً سال من زاوية فمي اليمنى.

وأثناء شده كان يصرخ :

- أميييييير، هل تسمعني؟

لم أجبه، هكذا زعم لزملائه المحيطين به.

طلب من الممرضة عمل رسم قلب لي، . بعد نصف دقيقة كان يقول لزميله :

No electrical activity

في داخلي كنت أقول للطبيب :

لا أتعاطى أي مخدر أو دواء ، ولم يسبق لي أن مررت بتجربة مماثلة، فيها الألم والتيه والموت معاً .. أن أهوي بعنف إلى الداخل وأسمع صوت ارتطامي في أعماقي، هكذا قلت له ويبدو أنه لم يسمع هذه القصة العجيبة.

أما عن التدخين فأنا حديث عهد به، ولست على هوى معه.

وعندما شد شعرات صدري دفعت يده بعيداً وقلتُ له بغضب جم:

للميّت حرمة أيها البليد.

بصق على وجهي، فمسحتُ بصاقه بيدي واستجمعت ما بداخل فمي من دم وقيء وبلغم ثم أطلقته على شكل

كرة سيّالة في اتجاه صدره. لقد رأيتُ بقعة ملوّنة على قميصه، يبدو أنها بصاقي الذي لم يأبه له.

وضع يده اليسرى على خاصرته. كوّر يده اليمنى. كانت إبهامه متجهة إلى الأعلى مثل علامة " ok" .. في لحظة عاجلة كان يضرب صدري ، منتصف صدري ، بقوة هائلة. أحسست أن عظمة القص التصقت فعلاً بعمودي الفقري. وأن قلبي انهرس بمرارة تحت تأثير هذه الضربة. سال دمّ في تجويف عيني؛ ومن فتحتي أنفي. ومن زاوية فمي اليمنى سال دم أسود حتى وصل إلى صدري. مسحت الدم من فمي بشمالي. ثنيتُ سبابتي اليسرى وإصبعي الوسطى ومسحت طرف وجانبي لساني من الدم. حدقت في يدي، رأيت الدم، كان أسودَ على نحو غريب.

مسحت بطن كفي الأيسر على صدري، وبكيت.

تحسّس حافة كفّه اليمنى، رأيت علامة الوجع على وجهه:

- ابن الـ .. أوشك على أن يكسر يدي بصدره المصفّح.

ثم بصق في وجهي للمرة الثانية.

حدق للحظات في شاشة الجهاز الموضـــوع أعلـــى رأسي، والموصل إلى صدري عبر أســـلاك متداخلـــة. تأملني.

لم يلاحظ أي شيء، لا دم ولا حركـــة.. لا شـــيء. كذلك الممرضة، وطبيب آخر كان بجواره، لم يلاحظوا شيئاً على فمي أو أنفي أو صدري.مصطفى كان بالقرب من هذه الأحداث، أخرجوه مـــن الغرفـــة فعـــاد إليهـــا. وبمجرّد أن رأى الطبيب يبصق في وجهي ويلعن أمّي، صرخ في وجه الطبيب :

- أيها الحقير،هل هذا هو قسم أبقراط الذي أديته عنـــد التخرّج؟وما دخلك أنت بـــ " أبقراط " يا ابـــن الـــــ ... لعنة الله عليك، أنت و"أبقراط" وهذا الميت المتعفّن.

أنتم عالم تافه لا يستحق العناية.

إلى الجحيم ...

واختفى مصطفى، أو: سُحِب إلى الخفاء علـــى نحـــو مهين.

كان هذا أسوأ ما حدث لي حتى تلك الساعة.

على الحائط المقابل للسرير الذي أموت عليه توجـدُ مرآة متوسطة الحجم وبجوارها لوحة عتيقة في إطـار قديم، اعتقدتُ أنها تعود إلى أوائل أيام هذا المستـشفى، ربما إلى الأربعينات من القرن الماضي. عليهـا نـص بالإنجليزية مكتوب بفونت تقليدي وأنيق :

Hippocratic Oath

I swear to fulfill, to the best of my ability and judgment, this covenant .....

بصعوبة بالغة استطعتُ أن أقرأ الفقرة التالية، وأنـا أجاهد ضد إغلاق الستارة وفتحها، وضد وقوف ممرضة أو طبيب أو مرافق لمريض بيني وبين الحائط :

I will remember that I do not treat a fever chart, acancerous growth,but a sick human being, whose illness may affect the person's family and economic stability.My responsibility includes these related problems,if I am to care adequately for the sick.

قرأت النص كاملاً علـى فتـرات متباعـدة بـسبب المعاوقات المتكررة في الطريق الذي يقطعـه بـصري

المستقيم. وعرفتُ بالتحديد ماذا عنى مصطفى بقولـــه : قسم " أبقراط"

مرّة أخرى، عاد الطبيب بعد غياب دقائق قليلة ليلقي تعليماته لزميله.كان يمدّ قامته إلى الأعلـــى مثـــل إلـــه يوناني، وكأنه يبعث فيّ الحياة. إنه كان يقرر وفـــاتي لا أكثر، وهو فعل أستطعتُ أن أنجزه منذ ساعة من الآن، إذا كنتُ متأكداً من حساب الوقت.

" امتشق ذاتك إلى الأعلى حين تحيي الناس، وامـــنح نفسك درجة الإله أو الشيطان، لن يعتـــرض الكثيـــرون على ذلك، أما الآن فأنت إله موت، أنت شـــيفا اللعـــين، بماذا تفاخر أيها البليد .. اللعنة "

صرختُ في وجهه.

تحدّث إلى زميله بمـــصطلحات لاتينيـــة وإنجليزيـــة وعربية عن وضعي.

يا إلهي، تجهّمت، إنني أحفظ كل كلمة تقال، حتـــى تلك المفردات التي لا أعرف ترجمتها أحفظها دون عناء ومعها كل التفاصيل. من أين أتتني هذه الذاكرة فجأة، هل أنا ميّت فعلاً وهذه ذاكرة ميّت؟ لماذا يصر الطبيب على

اعتباري مريضاً، ثم يصفني بالميت لمتعفّن كما قال لمصطفى منذ قليل.

فتح الطبيب عيني مرّة ثانية، أضاء كشّافه الباهت، ثم أطفأه.

قال له زميله بلغة إنجليزية آلية: Still young

رد على زميله: Too young

كانا يتبادلان اقتراحاتهما وتفسيراتهما عن حالتي، أعني عن موتي، باللغة الإنجليزية لكي لا يفهم المتواجدون بجوار سريري بصحبة مرضاهم، ولا أدري ما الحكمة في ذلك. وعندما قدمني إلى زميله لأول مرّة استخدم مصطلح " كود بلوو" ليلخص مجمل حالتي. تمنيتُ أن يمسك الطبيب بميكرفون كبير ويعلن عن أن حالتي فاقدة الأمل، لتهون على هؤلاء البائسين مصائبهم. على الأقل سينخفض هذا النحيب الذي أسمعه بأصوات ونبرات وعبارات شتّى، وسأواصل موتي بهدوووء. سأمشي مع الموت هذه المرة إلى أقاصيه البعيدة.

ابتسمتُ وأنا أطالع في وجه ممرضة كنتُ منذ قليل أرى قفاها فقط. أردتُ أن أقص عليها فكرة الملك الذي

طلب من مواطنيه كتابة مآسيهم في قصاصات صغيرة، على إثر ازدياد معدلات شكاويهم؛ وكيف أنه قام بتوزيع هذه القصاصات عليهم بصورة عشوائية. لقد حدث ما توقعه عندما رأى أسراب البشر في اليومْ التالي وهم يقفون أمام قصره يطالبونه بإعادة مصائبهم إليهم.

فكتب على باب بيته: من رأى مصائب الناس هانت عليه مصيبته.

أنا الوحيد في هذه الغرفة الذي لن تهون عليه مصيبته،أعترفتُ.

عضضت على إصبعي الصغرى،أو هكذا كنتُ سأفعل

لكن أنا لستُ في مصيبة،أنا مجرّد ميّت ولا أدري ما الذي سيحدث لي في الغد.يُقال أن الأرض تظل كرويّة حتى بالنسبة للموتى،أسررت لنفسي، ولذلك فهم لا يتمّمون لو أن شيئاً رائعاً يكون قد حدث لهم مثل الموت.

وأن الموتى يعتقدون أنهم ورثوا حياة خضراء على عكس الحياة الزرقاء التي يتمتع بها الأحياء، ومع ذلك يطلق عليهم الأحياء مصطلح " كود بلوو" عندما تتوقف

قلوبهم عن الحركة، أي:عندما يموتون،كما هو تعريف الموت عند جارتنا الشريفة.لستُ في مصيبة، أنا الوارث العظيم لجيلٍ من البشر الشجعان الذين حملوا الموت على ظهورهم وفروا إلى به أقاصي الحياة،هذا ما سأخلص إليه الآن، أليس كذلك؟ حسناً..

- لماذا لا تسمعونني، احتججت، أنا أتحدث بصوت مرتفع،أراكم بوضوح تام وأفهم ما تقولونه عن موتي الذي هو مرضي عندكم.

(ممنوع دخول أي ابن مرَة وسخة من دون تذكرة)

صوت ثقيل مليء بالرعب لا بد أنه يأتي من الممر المؤدي إلى غرفة الطوارئ. كانت الستارة منفرجة نحواً ما،واستطعتُ أن أرى بجلاء شرخاً مجهرياً يسري في جسم المرآة،في الحائط المقابل.من المؤكد أنه حدث بفعل هذا الصوت الأجش،علّقت في داخلي.وفي اللحظة التي فتح فيها الطبيب عينيّ، قبل أن ينغلقا بشكل آلي بفعل الجاذبية،هكذا خمّنت، رأيت الأشياء بوضوح شديد. كان أنف الطبيب يقف على خط مستقيم مع عينيّ،واستطعت أن أرى ما باخله من مخاط متجمد.

أحسستُ بالقرف،لكني قلتُ لنفسي: أنفــه مــسدود، الليلة باردة،إنه الشتاء.البياض الذي مــلأ الغرفــة،لباس الطبيبات والممرضات والأطباء وطلاء الغرفة والإنــارة والستائر.. ذكّرني بالغرفة ٨ في مذكرات أمل دنقل :

كل هذا البياض يذكرني بالكفن.

ولم أكترث لخيال الكفن أمام عيني، فأنـــا الآن فـــي مرحلة ما بعد البياض، وما بعد الزرقة، أنا أخضر تاااام الخضرة، فدعوني أبكِ محاطاً بهذا الليل، أوحيتُ لنفسي.

حتى عندما أغلق الطبيب الستائر علـــى ســريري وأمر الجميع عدا الطاقم الطبي بمغادرة غرفة الطوارئ وبقيَ هو والممرضة فقط داخل هذه القبة المؤقتة، بعد أن أغلق الستائر على سريري، وكنت أنا ثالثهمـــا.. كنـــت أراهما بصورة لم يسبق لي معها أن رأيت بهذا الوضوح وهذه التفاصيل. وقف الطبيب خلف الممرضة للحظات، وضع يده في مؤخرتها بينما كانت تنحني لتدخل قسطرة بولية في قضيبي. يبدو أنه كان يختار توقيتاً مناسباً ليقوم بهذه الحركة الجريئة، فالشيء بالشيء يُذكر كما تقــول

العرب. كان وجهها منكباً على ما تؤديه من واجب مهني، وكان هو يعطيها تعليمات إضافية ليساعدها على تجاوز خجلها:

- ضعي كمية كافية من الجلْ على القسطرة، وضَعي قضيبه (استخدم لفظة خاصة لم أعرف أنها للعضو الذكري إلا بأثر رجعي) في راحة يدك اليسرى.

كان يعطي تعليماته بنبرة أحسست من خلالها أنه لا يقصد قضيبي وإنما يقصد قضيب نفسه.

- حاضر.. وتورّدت وجنتاها وشفتاها بدم غزير ورأيت عروقاً سميكة في عنقها وبدأت تختنق.

أمسكتُ برأسها بقوة. رفعته للأعلى حتى أصبح وجهها مقابلاً لوجهي:

- أيتها الملعونة،أنا ميّت، فكيف تضعين قسطرة في عضوي،ما الفائدة. لماذا يعتقد هؤلاء الناس ذوو الأردية البيضاء أن كلمة سر العالم تكمن في عضوي أنا فيكون هو القضية الجوهرية التي أحتوي عليها في ولادتي وفي ساعة موتي.

لم تأبه لما فعلتُه، ولا لما أقوله.

في الواقع هي لم تلاحظ أني فعلتُ شيئاً، ولم تسمع أي كلمة، ولذلك فإن صراخي من الألم لم يتوقّف. واصلت عملها بشكل آلي، رأيت البول يجري في خيط القسطرة في اتجاه كيس لا بد أنه يقع في الأسفل من السرير. أغلقت عيني بشدة ومسحت على جبهتي. كنت أحاول أن أتذكر ذلك الطبيب النصراني الذي ذكره مؤلف كتاب المستطرف في كل فنّ مستظرف. كانت ذاكرتي القديمة تنهض ببطء كما لو كنتُ أحاول أن أقلّب شجرة ضخمة ملقاة في مجرى سيل، لكن ذاكرتي الجديدة كانت سريعة على نحو مخيف.

– إنهما تنتميان إلى زمنين مختلفين، قلتُ لنفسي وأنا أتساءل: هل أصبحتُ في عالم آخر ، الآن؟

أخيراً بدأت ذاكرتي القديمة تعمل، إنها تنهض الآن مثل جمل مسنّ:

ذلك الطبيب النصراني الذي وصلته عيّنة من البول في إناء من الزجاج. نظر إليها بهدوء، ثم اندهش فجأة

(لا يمكن أن يكون صاحب هذا البول حيّاً).

وعندما عاد الرسول إلى سيده ليخبره بما قاله الطبيب النصراني، وجده قد مات.

لا أستطيع أن أتذكر أكثر من هذا. هل ذكـــر الإمـــام الأبشيهي، مؤلف الكتاب، شيئاً عــن خــصائص بــول الموتى؟

لا أتذكر، يا إلهي. حاولتُ أن أرعُش ذاكرتي:

لون بولي أصفر، عميق الصفرة، وبه ميــلٌ خفــي للزرقة. آخر ما يبقى في الموتى من صـــفات الأحيـــاء زرقة البول. (يوم نحشر المجرمين إلى جهنم زرقاً) لا بد أنه بول الموتى الأزرق، فلونه لم يسبق أن تغير بهذا الشكل. كما لا يمكن أن أتخيل الآن أن أحـــداً غيـــري، ويوجد بداخلي،هو الذي يتبوّل.

إنه أنا، فعلاً أنا ذلك الذي تبول فـــي الـــداخل منـــذ ساعات وها هو بوله يخرج إلى الكيس.

الآن أجد راحة عظيمة.

إنني أمارس،أمارس شيئاً ما. بولي يخرج إلى الدنيا من جديد،أنا أتبول عليك أيها العالم كما كنتُ أفعل حين أصاب بضائقة مالية شديدة وحين يصفني البعض بأني قليل الحيلة ويبالغون في رثائي.

الممرضة التي عبثت بعضوي أثارتني بدرجة بالغة العمق. ليس عليّ أن أخاف من كوني ميّتاً.

ميت يتبول ويشتهي امرأة ويلعنها أيضاً، ياللمفاجأة.

ولكن: هل أنا ميّت؟ هل متّ مجدّداً؟ كيف لم أحس بخروج روحي، و كيف لم أرَ أحداً من الملائكة جاء للقيام بهذه المهمّة المرعبة. آآي، أين أنت يا خوان غويتيسولو، يا صديقي الأسباني الحي، لترى مكاني الجديد؟ أنت تحب زيارة أماكن الموتى لأنها أكثر نظافة ولأن فيها مكان نومك الأخير، كما تدّعي؛ حسناً ما رأيك بمكاني الآن؟

كان الطبيب يلتصق بالممرضة بقوة هذه المرّة وهي منحنية. بالغت هي في الإنحناء، أمسك هو بخصرها وسحبها إليه، كما لو كان يفتح باب متجر قديم.

أدار رأسه إلى الخلف تجاه فرجة الستارة خوفاً مـــن أي اختراق مفاجئ قد يقوم به ممرض أو طبيب أو أحد أفراد أمن الطوارئ. ويبدو أنه كان يحاول أن يتذكر أنه في غرفة طوارئ، في تلك الضوضاء البشعة، الـــسوق المخيفة: سوق الموتى والمقهورين.

في تلك اللحظة،عندما التصق بمـــؤخرة الممرضـــة، اندفعت هي إلى الأمام،ووضعت يـــدها اليـــسرى علـــى بطني،وكانت في الأساس تقف في اتجاه وجهي من ناحية قدميّ.أحسست بأظافرها تنغرس حول سرّتي، وبأنفاسها تقترب من فمّي.

كانت تقترب من وجهي وتبتعد مثل ماكنة زجـــزاج. أغمضت عيني خجلاً من نفسي ومنها، فموقفي دائماً أن لا أطّلع على الإنسان في لحظة ضـــعفه الغرائـــزي أو الأخلاقي،أو حتى الجسماني، لهذا رفضت أن أتخصص في علوم الطب.

وبينما أنا أحاول أن أفهم ما الذي يحدث لي الآن بحق السماء،أحسست بلسانها تلعق شفتي مع كل دفعة تتعرض

لها من الخلف وفي أكثر من مرة كانت تعض على شفتي السفلى في محاولة منها – ربما – للتحكّم فـي حركتهـا البندولية ولتمنح الطبيب فرصة أطول ليحك عضوه فـي مؤخرتها. الأمر فيزيائي بحت، قلتُ.

سقطت القسطرة من يدها اليمنـى وغابـت تحـت السرير. وبغريزة لاواعية منها قبضت عليه بيمناهـا ، بقوة،كأنها كانت تحاول أن تنتزعه من أصوله البعيـدة، من جذوره التي كنـت أعزوهـا دائمـاً إلـى الـسديم الكوني،في كل مرة كنت أحضر فيها كشاهد عيان علـى حرماني ..

" الجنس مثل الأطباق الطائرة يتشكل من غبار الكون ومن أوهام الناس "

.. أين أنت يا مصطفى، الآن. أنا الذي كنـتُ أقـول لك:

ما دمتَ قادراً على أن تنال امرأة في الخيال وتفلت من أزمة الخطيئة فما الحاجة للركض الحثيـث خلفهـا وأنت تعلم أنك لا تملك الوقت الكافي لـصناعة الحيـل

المؤكدة للإيقاع بها ولا القدرة على تجاوز عقدة الـذنب وانتهاك مقاصد الإله من خلال جسدها.

ها أنذا تنالني امرأة في عالم المشاهدة والمحسوس، ولا زلتُ كما كنتُ في القديم أنالها في ظهر الحلم والخيال.

يا للسخرية.إنه قدر البروليتاريا يا رفيقي.

كان هذا يحدث لي، في حين كنت أنتظر من هذه الغرفة القصية المحشورة في ركن مغمور من العالم.. أنتظر شيئاً آخر: صدمة كهربائية تبعث قلبي من جديد، مثل تلك الصدمة التي حاولت أن تنقذ صديق محمود إمبابي صباح هذا اليوم.

أليس هذا هو ما يفعلونه هنا، قلت لنفسي،ثم لعقت آثار ريقها على شفتي،وهي واقفة في اتجاه وجهي تنظر إليّ بعد أن أنجزت مهمتها.

تذوقت دماً في لعابها على شفتيّ، لقد مزقتهما هذه الملعونة. آآآي.

ماثلة هي أمامي، تناظرُ جسدي المفرود :

القسطرة في عضوي التعيس،وخيط البول المـــزرق يتّجه إلى كيس يقع في الغالب تحت السرير الـــذي أنـــام عليه..

الطبيب غادر الخيمة وهو يقول للمرضة:

- برافووو

وهي تقف في مواجهتي بمفردها،وتهمس بـــصوت مسموع وبه حزن عميق:

كم هو مدهش.

لو أن صديقي محمد في مكاني، كان سيسألها: مـــن المدهش عضوي أم الطبيب؟

أغمضتْ عينيها للحظات ودسّت يدها اليسرى بـــين فخذيها وعضت على شفتيها.

- برافووو ..

ثم تقيّأتُ إلى داخلي.

سمعت أصوات قيء عنيفة،ورأيت فتات طعـــام ودم في قيئي.

ولم أمسحه هذه المرة، لا أدري لماذا.

" أرجوكِ، ما أحتاجه الآن هو أن أخرج من سـجني إلى سجنكم من جديد.

ما تفعلينه بي ليس هو ما انتظره الآن منك ولا من الطبيب.

لماذا تلبي الصدفة احتياجي القديم الآن؟هل يعني هذا أني أموت للمرة الأخيرة، وما يحدث لي هو أن الحياة تسلّمني عهدتها، تنجز معي آخر التزاماتها تجاهي.

لماذا الآن فقط أشترك في عملية جنسية، وثلاثية أيضاً، وقد عشتُ دهري كلّه أحط حظّاً من الأعمى، وأندمَ من رهين المحبسين.. "

إنني أرى كل شيء، ما معنى هذا؟ الحمدُ لله، لوهلة خشيتُ أن يكون ما بقيَ لي من حواس هو ما يكفي لأكون شاهداً على ما أعتقد أنه الخطيئة الأبدية.. قلت لهما بصوت عالٍ منذ قليل:

ما الذي تفعلانه أيها المأفونان؟ وأنت أيتها الشيطانة، اسحبي يدك عن عضوي، إن للميت حرمة أيها البلداء.

وعندما لم يستجيبا لي، فيما بدا أنهما لم يسمعا ما قلته،أغمضت عيني، وقلت لأصدقائي الذين غادروا القهوة منذ ساعات بعد أن شهدوا بداية موتي:

لقد رأيت إلهاً في الأخضر يضع يده في مؤخرة نصف إلهةٍ في الأبيض.

ورأيتُ الإلهة وهي تعض على شفتي. أشعر بالأسى للشعوب التي تنتخب إلهةً أنثى ولا يتوفر لها إله ذكر.

لستُ عنصرياً، لكن الإلهة كثيرة النوافذ دائماً.

وضحكنا كالعادة.

كأن مصطفى كان يعلق بنبرته الهادئة:

إنها لقطة شبيهة بمأساة الشاعر عطارد بن حاجب وهو يتألم للمصادفة التي ساقت له نبيّة أنثى وساقت لأهل اليمامة نبيّاً ذكراً، فنكح نبيُّ اليمامة نبيته الأنثى.

فاعترض ابن حاجب:

أضحت نبيّتنا أنثى يُطاف بها، وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا.

ضحكتُ أنا بصوت مجلجل لأنشغل عن هذه البشاعة التي تمارس على جسدي.

كنتُ أرى ضحكاتي تصعد من صدري على شكل دوائر دخانية،إلى الأعلى.

وهكذا اكتشفتُ بنفسي كيف أن الموتى يضحكون في الأعالي، ويبكون في الأرض.

وعدتُ أهمس من جديد:

دعوني أبكِ محاطاً بهذا الليل

دعوني أبك، فإن الدموع تحيي التراب

وها هو ذا يخضوضر.

لوهلة، يتحول جسدي إلى ملاءة لممارسة الجنس، ويسقط أنصاف الآلهة، كما يسميهم الألمان، في مختبر حاجة الإنسان.

مثل الأحياء،مثل كل الأحياء يسقطون ويفيقون.أو يعيشون،هكذا باختصار. بيد أني لا أفهم ما معنى أن يسقط الأحياء على ميّت،على جسد مات لأكثر من مرّة.إذا كان للجنس معنى آخر حين تؤدى طقوسه على

ظهراني جثّة هامدة فلماذا لا تفتح المقابرُ أبوابها.. لماذا لا يتسافدون في العراء،في ظهر هذه الأرض، أكبر جثة هامدة في الكون.

لماذا لا يكتبون شعراً، لماذا لا يفعل العامة ما يفعله الشعراء فيما يسمونه: شعراً، وهو ليس أكثر من فعل جنس جمعي.

ما الذي سيفعلانه الآن من أجلي، من أجل أن يعود صوتي ريحاً تغادرني إلى الخارج، من أجل أن أخرج من هذا الحبس الذي سقطت فيه.

أريد أن أن أخرج عني إلى العالم.أنا أراكم وأتنفس مثلكم. لقد تقيأت عليكم منذ قليل، فافعلوا شيئاً لكي أخرج إلى العالم.

أو دعوني، سأدخل إلى العالم وأتوحّد به كما يفعل الصوفي العارف في مقامه البعيد، اخلع نعليك.

افعلوا شيئاً لهذه الأحجار التي تتساقط بداخلي الآن، للدخان الذي يُدخِلني في طيّاته، أوقفوني هُنا.

أيها الأشقياء، أنا أتلاشى ..

لا، لا:

أنتم تتلاشوووووووووووووون.

(٣)

في تلك الليلة الباردة، ١ يناير ، ٢٠٠٨م.

كانت صحف ذلك الخميس قد حذرت المصريين من أن الطقس لن يكون مستقراً وقد تهبط درجات الحرارة في بعض مناطق شمال مصر إلى مستوى الصفر. كتبت بعض الصحف: العالم هذا العام صيف طويل حار وشتاء قصير قارس.

الصحف الرسمية كتبت مانشيتات على منوال: ينصح الخبراء بالإكثار من المشروبات الدافئة، ولم تحذر أحداً كعادتها.

ولم تكذب النجوم هذه المرّة فقد كان ليل الخميس يجري في عظامي مثل المنشار.في القاهرة، كنّا نصرّ على أن نلتقي، ونستعد لمواجهة البرد بالملابس الثقيلة والشاي والسحلب. كان صديقي محمود إمبابي، يقول لأي واحد منا إذا اعترض على الخروج بسبب البرد:

إنه مجرد طقس أعزل، ادخلوا عليه الباب تغلبوه.

وكان بعضنا يعلق عليه : ليس من الشجاعة مجابهة الخصم الأعزل.

فيرد بخفّة :

إلا البرد، ملعون في التوراة ومطرود في القرآن.

ويفتري على الكتابين.

وكنا نطلق على محمود اسم " الأخضر الإبراهيمي" لأنه لم يكن أخضر ولا إبراهيمياً، ولكنه كان يتولى عملياً ترتيب كل الخطوات التي تؤدي إلى لقائنا الأسبوعي في القهوة المعتادة، وسط البلد، ويصل متأخراً بشكل متكرّر.

في الواقع لم يكن مقهى واحداً، كانت مجموعة من المقاهي المتداخلة وكنا نجلس على أوسع طاولة متاحة، دون شروط مسبقة، ودون أن نعلم مَن مِن النادلين يتبع من.

كنتُ أرتدي جاكتاً بيبج، اشتريته في يناير من العام السابق، بـ ٢٥٠ جنيه. وبنطلون جينز أزرق، به جيب

جانبي ناتئ يبدو أنه مخصص لوضع التلفون المحمول. وهكذا فقد كنت أضع التلفون المحمول في هذا الجيب، مثلما أفعل أنا الآن. وعندما أستقبل مكالمة وأنا بين أصدقائي أقول لهم:

أنا الوحيد من بينكم الذي لن يصاب بعقم بسبب استخدام الهاتف المحمول.

ودائماً ما كان محمد عيسى، وهو شاعر يدرس في السنة الأخيرة من كلية الإعلام بجامعة القاهرة، يرد علي:

سيأتيك العقم بطرق أخرى يا صديقي.

وكنت أشاكسه :

محمد عيسى ، ١٧ عاماً.

وأعيد من جديد، وأنا أضحك باسترخاء، سرد الصدفة التي قادتني إلى أن تعرّفت على هذا الشاعر عندما قرأت له نصّاً شعرياً في واحد من منتديات الإنترنت ، والذي تحول فيما بعد إلى كرخانة عامة لإدارة عملية قوادة

إليكترونية كبرى. ربما حدث هذا التحول لمبغى – أعني تحول المنتدى – عن غير قصد تحقيقاً لحتمية الأب توما الأكويني: ليس من المنطقي أن نمنع البغاء في المدينة وإلا طفت القاذورات على الطرقات.

على أيّة حال، ما يهمني الآن وأنا أتذكر تلك الليلة التي متّ فيها لأسباب لم يتعرف عليها الأطباء ولم يكتبوها في تقرير الوفاة، الذي لم أصطحبه معي عندما غادرت المستشفى، هو صديقي عيسى، محمد.

لقد بدا في أول نص قرأته له محارباً أكثر منه شاعراً، وذيّله بتوقيعه: محمد عيسى، ١٧ عاماً. حدث هذا منذ خمس سنوات من الليلة التي متّ فيها.

وعندما وصلت إلى المستشفى في تلك الليلة، ١ يناير، فتح مصطفى باب التاكسي، واتجه إلى الحرس الواقفين أمام بوابة المستشفى. كان يصرخ بهلع:

حالة طارئة، أرجوكم أسرعوا.

نظروا إليه ببرود، ورد عليه رجل ضخم يبدو أنه من حرس المستشفى:

- كن هادئاً يا عزيزي، فكل الحالات التي تصل إلى هذا المكان هي حالات طارئة.

- ولكنه شاب، ويموت.

- معظمهم شبان، ويموتون

- ليس لدي وقت كافٍ للعراك.

- (....)

اندفع إلى الداخل، وبعد دقيقة تقريباً كان يدفع سريراً متحرّكاً وهو نصف محنيٍّ عليه، وخط عرق يقطّرُ من أرنبة أنفه. في الممر المؤدي إلى غرفة الطوارئ كنت أحس بضيق المكان، ولأول مرّة منذ اللحظة التي متّ فيها بدأت أحس بالاختناق.

فهو ممر بالكاد يتّسع لسرير متحرّك واحد وممرضة متوسطة الحجم تلتصق بالجدار.مرّت ساعة كاملة. وأنا لم أعُد إلى حياتي السابقة. مصطفى لم يعد موجوداً في الغرفة. الستارة مغلقة تماماً عليّ. أحداث كثيرة وقعت فوق جسدي الهامد، لم أستطع أن أفهمها.

الطبيب الذي يقف الآن في مواجهتي ليس هو الطبيب الذي مارس نصف عملية جنس مـــع الممرضـــة فـوق جسمي، جسمي الذي تحوّل فجأة إلى حمّالة نهدين، إلـــى أعمدة سرير. الوجه الأنوثي الناعم الذي يقــف بمحـــاذاة الطبيب، الآن، ليس هو وجه الممرضـــة. بالتأكيـــد، لا يمكن أن تكون هذه ممرضة. لقد تأكدتُ من ذلك فيما بعد، عندما كانت تمسح على شفتيها وخدّيها وجبهتها وتغلـــق أزرار الروب الطبي الأبيض. لقد استطعتُ أن أقرأ على البطاقة البيضاء المعلقة على صدرها :

فاتن مصطفى، طبيبة امتياز.

قرأت الاسم من مسافة تكفي لكي لا يستطيع أحـــد أن يقرأ الكلام المكتوب بخط ركيك، وبقلم أزرق جاف.

لقد دفعت هذه الطبيبة، قليلة الحيلة، رشوتها عن طيب خاطر. أنا متأكّد من طيبة خاطرها، فلقد كانت صـــاحبة المبادرة في أكثر من ٧٠% من الفعل الذي حدث للمرة الثانية فوق جسمي ، أنا سرير الأشقياء ، أنـــا ملاعتهـــم الرطبة.

لو كنت بين أصدقائي الآن، لعلّقتُ بشجاعة :

في كل كبدٍ رطبةٍ أجر.

وسنستغرق في الضحك، مثلما دائماً، وسيقف مصطفى مهدداً بتركنا :

يا أوغاد، سأتقيّأ عليكم إن لم توقفوا حديثكم السافل ، هذا.

تحوّل الطبيب من جانبي الأيمن في اتجاه رأسي، ثم وقف خلف رأسي مباشرة. على الجانب الأيسر للسرير كانت تقف عربة صغيرة بها محاليل وأدوات تعقيم ومقصات ومشارط طبّية وقفازات وأشياء أخرى لم أتعرف عليها.

– تعالي يا دكتوره

– حاضر

وقفت الطبيبة خلف رأسي. بعد لحظات قليلة كان رأسي يلمس بطنها وهي تضغط عليه بقوة، ثم تبتعد عنه. تذكرت الممرضة، وكيف كانت أظافرها تنغرس

في بطني ثم تنفك قليلاً. يا إلهي، ما هذا، قلت لنفسي؟ أنا لا أستطيع أن أنظر إلى الخلف، وليس بمقـدوري رفـع جفني عيني لأرى ما الذي يحدث.. لقد أغلقهما هـؤلاء السفلة.. لا، لقد انغلقا تلقائياً، فلا يمكن أن يكون لهؤلاء الأشرار ضمير بهذا الصفاء، أن يغلقوا بصري حياءً من الميّت. ولكن هل أخيراً اقتنعوا بأني ميت؟ ومـا الـذي يفعلانه الآن خلف رأسي.تعِس الإنسانُ ابن الإنسان كـم هو مقفر ومخيف، اشمأززت.

تخيّلت الطبيب يقف خلفها وهي ملتصقة به، بينمـا يلتصق ظهره بالحائط.

- هذه الحالة is already dead

- أها، والسبب؟

- غير معروف. لكنه وصل إلينا too late.

- يرحمه الله.

- يرحمنا جميعاً ، المهم أنه أصبح ميّتاً ونحن أحياء. من حقّنا أن نستفيد منه لكي ننقذ أحياء آخرين . مهمّتنـا

مقدّسة ولا يقدرها أحد. سأعلّمك مهـــارتين علـــى هـــذه الجثة:

كيف تدخلين أنبوباً تنفّسيّاً في القصبة الهوائية.

وكيف تستخدمين الصدمة الكهربائية.

– أهاااااا، إذن فالصدمة الكهربائية التي تحدث عنهـــا محمود هذا المساء لا تنفع في حالة الموت، في وضـــعي الذي أصبح أكيداً الآن. سيعلمها كيف تستخدم الـــصدمة على جسد ميّت.

لكن: هل أنا ميت أم أن قلبي متوقف وحسب. مـــاذا عن حواسي الجديدة، أجيبوني عليكم اللعنة؟

بدأ في إعطاء تعليماته بصوت متقطّع ،متحشرِج، فيه غنة لم تكن موجودة منذ نصف دقيقة.

Head tilt-

نفذتِ الأمر، وقامت بإحناء رأسي إلى الخلف بحيـــث أصبح ذقني في مواجهة السطح، وعيناي في مواجهتهـــا هي، وهو.

كان يحيط خصرها بيديه – تخيلتُ ذلــك – ويــضع رأسه على كتفها الأيمن وهما منحنيان يفصل رأسـيهما عن وجهي سنتيمترات قليلة.

سعلت الفتاة في وجهي، مرّتين.

– سلامتك.

– الله يسلّمك.

مسح بكفه اليمنى على شفتيها، في الــسعلة الأولــى ولعقها بلسانه.

وضع كفه أمام شفتيها فسعلت للمرة الثانية في كفّه. بعد ذلك وضع كفه أمام شفتيه. رأيته يخرج لسانه ويلعق بطن كفّه بصورة مخيفة.

أنا لم أره بوضوح، لأن جفني مغلقــان. كنــتُ أرى بعتامة ما، لكني كنتُ فعلاً أرى. كانت الــسعلة الأولــى عفوية، لكن الثانية لم تكن كذلك. عنــد هــذه اللحظـــة انفتحت الستارة، أطل منها الطبيب الأول، رأى المشهد، ابتسم دون أدنى ارتباك،وأغلق الستارة.

أما الطبيبة فقد كانت تضع يدها على فمي هكذا: تضغط بإبهامها اليسرى على خدي الأيمن، وبأصبعها الوسطى على خدي الأيسر.. كانت تفعل هذا من خلف رأسي.

وعندما أطل رأس الطبيب الأول من فرجة الستارة سمعت شهقتها. ارتبكتْ، وبغريزة ما ضغطت على خدي حتى التقت إصبعاها في منتصف تجويف فمي. خيط لعاب طار من فمها على صدري. أحسست به يبتدئ من أسفل عنقي وينزل لمسافة سنتيمترات بين شعرات صدري. ربما أردتُه أن يمتد لهذه المسافة.

وفي لحظة ما من ذلك الزمن الذي متّ فيه تحوّلت إلى طفل امرئ القيس، الذي تنصرف إليه المرضعة بنصفها منذرة النصف الآخر للشاعر الفحل:

إذا ما بكى من تحتها انصرفت له .. بشقٍّ وتحتي شقها لم يحوّل.

كنتُ أتخيل أصدقائي،عندما سيموتون مثلي وفي نفس المكان وبنفس الطريقة، وهم يمرون بنفس الطريق الذي مررت به، ويتناوب عليهم ذات الأطباء والطبيبات

والمرضى في حفلة وداع جنسي تشيّعهم حتّى أول الآخرة.

ابتسمت في تلك اللحظة وأنا أتخيل صديقي محمد عيسى يروي الأحداث بطريقته الخاصة، ونحنُ لا نكاد نفهم منه جملة واحدة بسبب اختلاط الحكي بالضحك. سمعته يلعنهم باستخدام كل المجازات والمعاني الجنسية العفوية التي يفاجئنا بها في أي تعليق يقوله.

وتخيلت صديقي مصطفى وهو يستأذن من الطبيب والطبيبة، ويقول لهم:

أيها الأوغاد، دعوني أمت في مكان آخر. أنا أتقيّأ عليكم.

تخيلت صديقي خالد،الشاعر البوهيمي، وهو يبكي:

كان من الممكن أن يحدث هذا البارحة .. يا لتعاستي.

ورأيته يقول بطريقته اللئيمة عندما يعرّف نفسه:

أنا فعلا بوهيمي ، ولدي إحساس عميق أني كذلك ..

ولكن ما معنى بوهيمي؟

رن هاتفي المحمول. كان بنطلوني مرميّا بجانب السرير على نحو غير مبال.

وكانت رنّة هاتفي المحمول هي أغنية : سألوني الناس عنّك يا حبيبي، للسيدة فيروز.

التقط الطبيب بنطلوني. تحسس جيوبه، وأخرج الهاتف. حدّق في وجه الطبيبة بابتسامة عادية شديدة البلاهة ، وكانت قد توقفت عن العمل في فمي وحلقي مع بدأ الرنين.

- أحب فيروز ، كأنها أمي

- أنا أيضاً أحب فيروز، كأنها أمي.

- وأنا أحب أمّكِ.

- (....)

قليل من التورّد على خديها وشفتيها، كثيراً من الخشخشة سمعتها تأتي من مكان يقع إلى الأسفل من رأسي.

يكفي ..

بعد أقل من ٣٠ ثانية ظهرتْ يده مرّة أخرى في مدى بصري المستقيم. ضغط بسبابته على زر الإغلاق، فسمعت نغمة إغلاق التلفون قادمة من مكان بعيييييد. دس التلفون في جيب بنطلونه. ابتسمت له الطبيبة ابتسامة عادية أيضاً وأقل بلاهة.

صرخت في وجهيهما: أيها اللصوص، لا تسرقوا ذاكرتي. وفي طرفة عين كانت ذاكرة التلفون تنفتح في رأسي والرسائل المحفوظة فيه تجري أمام عينيّ مثل سيلٍ من الأنعام السائمة، مثل الأسرار في الحروب.

حدق في وجهي، وضع يده على فمي، وللتأكد حرك الأنبوبة التي تمر من بين شفتي وتنغرس في مكان ما في تجويفي لا أعرف أين هو على جه الدقة، بيد أني أتذكر الآن أني سعلتُ بعنف أثناء مرور هذه الأنبوبة في حلقي، وندّت دمعات كثيرة من عيني.

– نعم. برافوا عليك. الآن، نجرّب الصدمة الكهربية.

– قل لي يا دكتور ما هي الخطوات، وعد إلى انشغالك. لن آخذ من وقتك كثيراً.

- ضعي جِلْ على قبضتي الجهاز. الصقيهما بصدره، بالتوازي. اضغطي بقوة عشرة كيلو جرامات. اشحني الجهاز من الزر الأصفر، ثم اضغطي زر الإطلاق الأحمر. لا تلتصقي بالسرير. تذكري أن تضبطي الشحن عند ٢٠٠ جول.

في الواقع أنا لم أحفظ كل هذه التفاصيل. كل ما في الأمر أني كنتُ أراقب الطبيبة المتدرّبة وهي تنفذ التعليمات بصورة متكررة حتى حفظتها. كنت أتابع برعب مؤشّر الشحن. ولأني مهندس فأنا أعرف ما معنى " جول" ولستُ متأكّداً من معرفة الطبيبة به. لا، لا ، لا. لقد كانت ذاكرتي، مثل حواسي، مختلفة وعملاقة. لا بد أن أعترف بهذا. الميّتُ عملاق، لكنه بعيد وقَصيّ ولا يمس العالم بحواسه الجديدة وإلا فرّ الناسُ من بيوتهم إلى الصحارى و(لخرجتم إلى الصعدات تجأرون) .. على كل حال، فهذا يقينٌ شكّلته ليلة موتي، وهو وإن كان نهائياً إلا أنه يظل يقيني الفرداني، وليس مقبولاً من الأحياء ترديد إيمانات الموتى.

كان جسمي ينطلق إلى الأعلى وأنا أصرخ: لعنة الله عليك يا جول..

في واحدة من المرّات رفعت فاتن مصطفى مؤشــر الشحن إلى ٣٠٠ جول.

- يا إلهي، ما الذي تفعلينه أيتها الملعونة.

لم أقفز هذه المرة إلى الأعلى، فقد أحسست بجــسدي يحترق و بجلدي يذوب على السرير ويلتصق به. وعندما رفعت المؤشّر إلى ٣٦٠ جول، صرختُ فــي محاولــة أخيرة للإفلات من حتمية الفصل بين الموتى والأحياء :

- لعنة الله عليك يا جول ٣٦٠ مرّة.

أعجبتها اللعبة على ما يبدو لي. كنت أرتفع وأهبط. بعد ثلاث دقائق كنت نصفَ مرميّ على الأرض. رأسي تحت السرير ورجلي اليسرى فقط فوق السرير.كان شعر صدري قد احترق بصورة قذرة، ووصلت رائحة الحريق إلى أنفي وعيني. قامت الطبيبة بتدليك صدري لتتخلص من آثار الشعر المحترق باستخدام شاشة وقطعة قطن. ثم بدأ العنف يخف نحواً ما.

استخدمت بعد ذلك يدها اليمنى، الاثنتين معاً. أحسست بأصابعها تنزلقان حتى مستوى سرتي. أردت أن أفهم الحادث على نحو مختلف، فهي المرّة الأولى التي تدلك فيها فتاةٌ بضّة ناعمة صدري وسرّتي، لكني كنتُ قلقاً من شيء آخر. أن يكون شعر بطني قد احترق أيضاً. تخيلت الحريق وهو يشب في صدري، ينزل إلى بطني وعانتي ويعرّج على شعر إبطي.هززت رأسي لأطرد هذا الخيال السخيف الذي لا يجدر بميّت، ميّت مهندس.

وابتسمتُ ..

بعد أن احترق شعر رأسي في البوابة الخارجية للمستشفى، ها إنهم يحرقون الآن ما بقي من شعر جسدي. يبدو أن هذه هي النار التي كنتُ أخشاها عندما كنتُ حيّاً .. حيّاً لا أرزق.

نادت الطبيبة على الممرضة.

حضرت الأخيرة إلى المكان، فغادرت الطبيبة، بصحبة زميلتها التي دخلت مع الممرضة.

– تعلمت هذه الليلة كيف أدخل أنبوبــاً تنفــسياً فـــي القصبة الهوائية وكيف أستخدم جهاز الصدمة الكهربائيّة.

– صحيح؟علميني بربّك. هياااا يا فاتن، بربّك (بينما كانت فاتن تدفعها خارج الستارة)

– بشرط؟

– قولي.

– سأعلمك في البداية كيف تركّبين قسطرة بولية. ثم الأشياء الأخرى.

– لكني أعرف كيف أركب قسطرة بولية.

– التكرار حلو،وليس كل تكرار كذلك،كما ليست كل أجزاء المريض حلوة..

(... ضحك ..)

عضت الطبيبة الجديدة على شفتها السفلى، فيما يبدو أنها كانت تتفاعل مع حديث هامس تسرده فاتن عليهــا. بعد لحظات وهما واقفتان عند فرجة الستارة والممرضة منشغلة بإعادة وضعي في السرير، رأيت هذه الطبيبــة تهز رأسها وعليها ما يمكن أن يعتبر حمرة خجل:

– نعم ،موافقة، ومستعدة.

فقد مكثت الممرضة معي بعد اختفاء الطبيبتين لمـدة دقيقة أو أقل قليلاً. أدخلت يدها في جيـوب بنطلـوني، وأجرت عملية تصفية أخيرة لما بقي في حوزتي من أي شيء.

– لا حاجة بك إلى الفلوس في الآخرة يا عزيزي. نم في حراسة الملائكة والصدّيقين.

أخرجت القسطرة من عضوي وألقت بكـيس البـول المزرق في سلة مهملات، هكذا فهمت. وبعد أن تحـرر عضوي من هذا الخرطوم قبضت عليه بيمينهـا بقـوّة وسقطت من صدرها زفرة جشّة.

ثم غطتني بملاءة وردية قذرة، مليئة بالـدم، وتنـشعُ منها روائح عنيفة، تشبه تلك الروائح التي كنتُ أتنفـسها في أحلام اليقظة في كل مرّة أتخيل نفسي وقد تحوّلـت إلى سياسي مرموق.حاولتُ أن أزيـح هـذه المـلاءة ، صرختُ في وجه الممرضة، في كل أولئك الذين كـانوا يفتحون الستارة للحظات ثم يختفون. لم يسمعني أحـد. فبكيتُ، للمرة الثانية هذه الليلة.فـي منتـصف دمـوعي

تذكرتُ فولجانج جوته فغنّيتُ لنفسي أنشودته (دعــوني أبكِ محاطاً بالليل) :

دعوني أبكِ فليس في هذا عار

ألم يبك آخيل على حبيبته بريسياس

وأكسركس بكى على الناجين من جيشه،

وعلى خليله الذي قتله بيده

بكى الاسكندرُ.

دعوني أبك، فإن الدموع تحيي التراب

وها هو ذا يخضوضر.

(٤)

في تلك الليلة البعيدة من ٢٠٠٨، الخميس، الأول من يناير.كنا في مقهى بوسط البلد، في القاهرة، وكان مصطفى سيد يلقي علينا مجموعة من نصوص شعرية جمعها من الإنترنت لشعراء يصنفهم ضمن مصطلحه الشخصي .Group of F

F هي اختصار لكلمة Failure

– وما معنى فيلير، سأله خالد وهو يفرك يديه بسبب البرد ويضعهما بين فخذيه،ولا يبدو أنه كان ينتظر إجابة من محمد. في الواقع،هو لم يكن يسأل. كعادته،كان يلتقط آخر كلمة ثم يسأل عنها ليثبت لنا أنه حاضر فعلاً ومشترك معنا في جلساتنا.

– فيلير تعني الفشل. بمعنى: مجموعة الفشل. اسمعوا الآن :

لابد من أي من الموتين:

موت العجز بين القادرين

وموت الاشمئزاز

الخازاباز يكاد من فزع يموت

من القمحدرة اقشعر

إلى الجعري

واستبد به الحزاز.

اشترك الجميع، وهم شلة من الشعراء الحداثيين الشرسين،في ضحكة عامة بدرجات متفاوتة من الحدّة وبدوافع مختلفة، حتى بدت ضحكتنا مثل لوحة موزاييك قديمة. لطالما جمعنا الشعر والضحك. إنها نفس الضحكة التي نطلقها تجاه كل شيء مهما اختلفت درجة قبولنا له. كنتُ فقط أحاول أن أضحك وبصوت مرتفع، فقد سبق لي أن قرأت كل هذه النصوص التي يلقيها علينا صديقي الشاعر مصطفى سيد. بصراحة، لم أكن متأكّداً مما إذا كانت النصوص فعلاً مثيرة للضحك، أو أن التفاعل الطبيعي مع نص لا يروق لي هو أن أضحك. بيد أنني

كنت مضطراً للضحك والقهقهة وربما استخدام بعض الألفاظ البذيئة ضدّها وضد منتجيها، أولئك الرديئين الذين يسكنون في الأعالي، فأنا سأحتاج لمجاملة أصدقائي قريباً في ضحكة مشابهة وكلمات بذيئة ربما تكون أكثر فتكاً من كلماتي عندما سأشير إلى موضوع ما أرى في حينه أنه مثير للضحك، أو أحط من القيمة الشعرية لشخص ما ولسبب ما، بمن في ذلك أولئك الذين يعيشون في الأسفل. وبكل تأكيد فأنا لن أكون سعيداً حين يقول لي أحدُهم :

لا ينبغي أن نضحك من نص يختلف معنا.

أو حين يبدي أحد الجالسين قدراً من التسامح مع ما يعتقد أنه جيد بدرجة ما أو رديء بالدرجة الكافية:

إذا تشابه شاعران في صفاتهما فأحدهما لا حاجة لوجوده.

كان لدي إيمانٌ عميق أن الجميع يشتركون معي في نفس التفكير، بنفس الوقت، بمن فيهم مصطفى، المحرض على الضحك بتلك الليلة، وهو المعروف بيننا بالمتسامح العظيم

- إلا في شؤون مولاي الشعر ، يقول.

لا أدري كم من الوقت مضى بين سماعي لهذا النص بصوت مصطفى واللحظة التي تقيّأت فيها على الطاولة.

في تلك اللحظة التي انفجرت فيها مثل بالونة ، مثل ممثل مغشوش ، أخرج مصطفى من شنطته كيس مناديل، زينة - ١٠٠ منديل معطّر.

مسح على وجهي وفمي، ألقى بعدد من المناديل على الطاولة فبادر خالد بتنظفيها وتنظيف قميصي. تدخل النادل، وأخذ الكتابين الذين كانا أمامي :

الجنرال في المتاهة، لماركيز.. والفسكونت المشطور،لإيتالو كالفينو.نظفهما من القيء والشاي الذي انكبّ عليهما بعد الارتباك المفاجئ الذي عمّ الطاولة.

- أفضّل أن أعود إلى البيت

- سأوصلك أنا، قال لي مصطفى.

وانطلق بين الكراسي العاجيّة الملوّنة بحركة سريعة في اتجاه الشارع القريب من المقهى. كنت قد بدأت أفقد

وعيي. وعندما وضعوني في التاكسي بمساعدة السائق كان وعيي قد تلاشى تماماً. ليس وعيي هو الذي تلاشى، فقد كنتُ أحس أن العالم هو الذي نزح عن وعيي.. كأني كنت أرى المدن والناس والنجوم، كلهم كانوا يحملون حقائبهم فوق ظهورهم ويدخلون في المتاهة، مثل جنرال ماركيز، هذا الذي كان بصحبتي منذ دقائق وهو الآن بصحبة خالد.. لستُ متأكداً من الشخص الذي أخذ الكتابين، لكني أرجح أن يكون خالداً، فهو يستعير كتبنا دون أن ندري ولا يقرأها. ولأنه دائم الانتقال من سكن إلى آخر فهو لا يستطيع أن يتذكر في أي سكن سابق ترك كتب أصدقائه، وفقاً لرواياته المتكرّرة التي لم نكن نحرص على تصديقها أو تكذيبها.

كنت أرى نفسي الباقي الوحيد، الوارث النهائي لهذه الأكوان، والبشر يتلاشون من أمامي. وعندما استقر جسدي في التاكسي أحسستُ أني أجلس على عرش من الدخان. ولأسباب غير واضحة بداخلي لم أكن مستعداً للقاء الله، إن كان ما يحدث لي الآن هو الانتقال إليه تحت

مسمّى الموت مثلما سيحدث لرفاقي فيما بعد. لم ألمح ذلك البرق الذي يركض بين أعين الموتى ويلتقطهم إلى الآخرة. لم أكن خائفاً من الله ولا قلقاً من سجل أعمالي؛ كنتُ قرأت منذ زمن بعيد، عندما كان الشيخ أبو شهاب يعلمني كيف أرد على أسئلة الملائكة في القبر ولا يعلمني كيف أرد على أسئلة أصدقائي وأسئلتي في الدنيا.. أن الموت يمر بين الديار والخيام مثل عربة قديمة،أو: في عربة قديمة. ينادي بالناس، ويفتح أبوابه. بينما ينظر إليه الناس بلا وعيهم من الشبابيك والشرفات. يبتسمون له ويبادلهم التحيّة، مثل بائع الألبان، وموزّع الجرائد.

وقيل،في النصوص التي قرأتها،أن الناس تربي قناعاتها بالموت في حياتها، حتى تصير القناعةُ بدراً، ويكتمل البدرُ بالموت. وهكذا فإن من يغادرون أهلهم وديارهم ويدخلون في هذه العربة الجوّالة هم أولئك الذين اكتملت قناعاتهم وأصبحوا على أهبة نفسية نهائية للموت عن طيب خاطر. قالت النصوص أن الموتى يضحكون،

وأن هذه الضحكة لا علاقة لها بأديانهم ولا بما يسمى في الأديان بحسن ختامهم. وأنهم لا يتمنون العودة إلى الأماكن القديمة، ولا يكترثون لما يمكن أن يحدث وراءهم. وأن الموتى القدامى لا يفكرون حتى بسؤال الموتى الجدد عن الدنيا، فهم مستغنون منفصلون عن الماضي. وفي هامش تلك النصوص قرأت آراءً تقول أن الموتى لا يتحدثون عن الماضي لأنهم لا يمتلكون أفعال الماضي ولا مفرداته. فلا توجد في لغة الموتى مفردة ظرف زمن مثل " أمس" أو فعل ماض مثل "حدث". لذلك فهم يعجزون تماماً عن الحديث عن الماضي أو التفكير فيه، وأن عجزهم هذا ترك لديهم يقينا بعدم الحاجة إليه. وكانت الخلاصة أن الإنسان لا يستطيع أن يفكر خارج اللغة وهذا ما يجعل من عودة الموتى إلى الدنيا أمراً مستحيلاً ..

إنها اللغة.

تذكرت هذه النصوص، وأنا أتلاشى على الطاولة، وأصابني الرعب. كيف سأعيش دون أن أحكي، أروي ،

أتذكر. كيف سأبكي بلا ماضي. وبدأت في البكاء العميق، لخوفي من أن أتحول الآن إلى موجود بلا ذاكرة.

وداعاً أيها الماضي، خذ ذاكرتي في طـــي ذاكرتـــك واذكرني عند تخوم المدن وبوابات الأحلام.

تذكرتُ ليال نبيل،اللبنانية العظيمة، وهي تخطب في الموت من فوق سور حياتها المتعبة في ليلتها الأخيرة :

أيها الموت المعلق في أهدابي مـــن أعمـــاق ذاتـــي أناديك،خذني إلى أقاصيك البعيدة.. أما أنت فلن تجـــرؤ على نسياني فأنا عناقك الأخير حيثُ الموتُ يولـــد بـــلا ذكريات.

ياه، ما أحلى الشعر، ما أمتع الذاكرة، ومـــا أشـــهى الموت.

قبل أن يعود مصطفى بالتاكسي، كان خدي الأيـــسر على حافة الطاولة، ومحمد عيسى يضع يديـــه الاثنتـــين تحت خدي ويطلب من محمود أن يركض إلى مصطفى ليستعجله.كان اقتراحهم أن أتجه إلى المستـــشفى، الآن،

بعد أن كنت قد أقنعتهم قبلَ أن أتلاشى بأن الأمر ليس أكثر من تسمم غذائي.

لم أكن فرحاً بهذا الموت، كما لم أكن مقتنعاً به، رغم أنه بدا شهيّاً في طعمه. قلتُ لنفسي:

يبدو أنه موتٌ مختلف. موتٌ مدبّر. موتٌ غير عادل، وبلا هوية.

في التاكسي،كان مصطفى يتحدث إلي وأنا أتسلل إلى الفستان الكوني الكبير، إلى إلى النور،وكنت أتمنى أن يكون مصطفى معي في هذا الغياب.

أن يكون الرفاق الخمسة بصحبتي الآن،إلى النور،إلى المجهول.شردتُ في موتي،في بداية موتي:

لماذا لا يبدو الله مستعداً للقائي الآن؟

أين الملائكة الذين سيحملون روحي إلى الأعالي ليُفتح لها باب السماء وتدخل في سدرة النهاية،كما كان الشيخ أبو شهاب يؤكد لي؟لماذا لم يأت أحدٌ إلى الآن ليسألني عن رأيي، عقيدتي في الأنبياء والجنة والنار والكون والحياة والموت؟

ثم فوق هذا كلّه، لماذا أموت حزيناً..ألا يُعد هذا موتاً غير عادل،أن يموت المرء حزيناً وغير مقتنع أو مستعد للموت؟

منذ متى وعربة الموت تقف بجوار طاولتنا، في وسط البلد، تسمع حديثنا؟ أريد أن أموت مع أصدقائي، فالموت مع الرفاق رحمة أبدية. هم أيضاً يريدون أن نموت مرّة واحدة وبنفس الطريقة.

- لا بد أن نستكمل حكاياتنا في الآخرة،في الطرف الثاني من الدنيا.

وكنّا نرد على خالد :

- رائع أن تؤمن بالآخرة،لكنها ليست طرفاً آخرَ للدنيا.

- أحياناً أيها الأشرار أؤمن بهما، بالدنيا والآخرة. وأحياناً أوزعهما بين الإيمان والكفر.لا تغضبوا،ليكن إذن:

- الآخرة طرفٌ آخر للإنسان.

كان مصطفى يضع يده على عنقي وكتفي، ويضم رأسي لكتفه. اقترح عليه السائق أن يأخذني إلى المستشفى، فقال له مصطفى أن الأمر كله مجرد تسمم غذائي، وأنه سيعتني بي فور وصولنا إلى شقتي في حي المنيل.

ألح عليه السائق، وعنّفه بشدّة.. أخيراً اقتنع مصطفى، واقتنعتُ أنا. تحولت وجهتنا الآن إلى المستشفى عبر شوارع فرعية عديمة اللون والشكل.

- يبدو أنه يعاني من هبوط في الضغط.

- تقريبا.

شوارع القاهرة في زحمتها المعتادة، حتى ونحن ندخل في الليل بعمق. الناس هُنا يتناوبون على حراسة النيل، فلا ينامون جميعاً ولا يسهرون جميعاً. ويبدو أن إبراهيم عبد المجيد كان يقصد القاهرة وليس الاسكندرية في عنوانه الكبير: لا أحد ينام في الاسكندرية.

ربما لا أحد ينام في مصر، في المحروسة.

– لماذا يخافون عليها ويسهرون على حراستها إذا كانت محروسة بالفعل، قلتُ لنفسي وأنا أرى التاكسي يحاول أن يخترع لنفسه طريقاً فوق الأرصفة.

ومنذ اللحظة التي أدخلتُ فيها إلى التاكسي، وحتى وصولي إلى المستشفى لم ينم صوت فيروز. بالغتُ في الاسترخاء، فأنا لم أسمع فيروز منذ أول مرّة متّ فيها، منذ عام كامل.

سائق التاكسي شاب متحمّس لكل شيء، وعاطفي. أدركت ذلك من طريقته في الحديث، وإصراره على أن تظل فيروز صادحةً في هذا التاكسي دون أن يكترث لوجود ميّت في الكرسي الخلفي، وراءه تماماً.

ميّت يعاني من هبوط في الضغط. هكذا كنتُ في المسافة الفاصلة بيني وبينهم.

استمرت فيروز :

سألوني الناس عنك يا حبيبي

كتبوا المكَتيب وأخدها الهوى

بيعز علي غني يا حبيبي

لأول مرة ما بنكون سوا.

إنها فيروز ،كما كانت تفعل منذ عامٍ عنـدما كانـت تغني لي أنا. وكنتُ أدلّعها: ماما فيروز، وأقبل خـديها. وفي كل أسبوع كنت أستبدل صورتها القديمة في جـدار غرفتي بصورة جديدة، وأستمر في تقبيلها وملاطفتها.

قلتُ لسائق التاكسي:

سأسجل الأغنية في تلفوني المحمول، وأضبط نغمـة تليفوني عليها.

سائق التاكسي مثل أولئك الذين يتواجدون الآن فـي قسم الإنعاش، في الطوارئ، لن يسمعني، لأني ميـت.. ولن يشاركني في انطباعي عن فيروز لأنـي مـصاب بهبوط في ضغط الدم وفاقد للوعي. وأنا إلى الآن لا أفهم لماذا أموت حزيناً وغير مقتنع. ولا حتـى لمـاذا يبـدو الموتُ حيلةً لاختطاف الناس على حين غرّة. نحن خلقنا بكامل وعي أهالينا ومجتمعاتنا، فلماذا نموت في الخفـاء والفجأة مثل الريح، مثل خراف بني إسرائيل الضالة؟

لكن الله يقول :

كما بدأنا أول خلق نعيده.

إذن أعيدوني مثل البداية، وسط أهلـــي، وبقنـــاعتهم التامة، وتأكدوا من أن أحداً في العالم لم يعد بحاجة إليّ، فأنا أتيتُ تلبية لحاجات كثيرة كان أبي وأمي يقتـــسمانها في الحسبان.

مَن هناك، من يسمعني أيها الموت، أيها الموتى، أيتها السماء، يا بُردة الحياة؟

حاولتُ أن أدخل يدي في جيب بنطلوني. كان جيبـــاً صغيراً أعلى ركبتي اليمنى. هكذا حاولتُ أن أفعل :

أدخل يدي في جيبي، أخرج التلفون، أضغط على زر " تسجيل". ثم أضغط على أيقونـــة الأغنيـــة (ســـألوني الناس) واستخدمها كنغمة رنين ونغمة تنبيه.

حتى فيما بعد، حين وصلتُ إلى المستشفى فقد حاولتُ أن أفعل أشياءً كثيرةً. كنت أرتب الفعل في ذهني، وأضع خطواته ثم أتمناه فقط.

يبدو أني أموت وحيداً، إذن.

لستُ مقتنعاً أن الموتى لا يتحركون. مـــا أعرفـــه أن الموتى سيموتون قهراً إذا لم يستطيعوا الحركة.

حسناً:

هناك عالم آخر أستطيع أن أتحرك بداخله. لكن: أين هو، لماذا لا يظهر الآن؟

أنا أعيش نصف الدنيا،نصف الحياة،ولا أرى الآخرة. يالها من سخريّة. هل عانى الـــذين مـــاتوا قبلـــي مثـــل معاناتي؟

أكثر ما يزعج الموتى هو صفة " الموتى".مـــن أيـــن هربت هذه الصفة لتلتصق بهؤلاء الأفذاذ ذوي الحـــواس اللانهائية.

قلت ذات مرة لحبيبتي وهي تحدثني عن الموت:

الموتُ آية النهار، الحياةُ آية الليل..

فوضعت رأسها على كتفي :

وأنت آية الموت والحياة.

لقد وصلنا إلى المستشفى إذن.استيقظتُ في مــوتي من موتي.لحظات،وبينما غاب مصطفى في الزحـــام،في دهاليز المستشفى،انشغلتُ أنا بملاحظة بوّابة المستشفى، وكل ما يحيط بها من بشر وحرّاس كما أفعل فـــي كـــل مكان جديد.وغالباً ما أردد تلك المقولة التي كان والـــدي ينسبها إلى أبي حنيفة:

لكل قادم دهشة.

فأندهش،أبالغ في الاندهاش لأني أحس مع الجديد أني أجتاز العالم من الطرف الآخر.

عشر كراسي متحركة لنقل المرضى مرصوصة أمام المستشفى،مكتوب على ظهر كل واحـــدة منهـــا:عربـــة حوادث الأستقبال (بهمزة قطع مفتوحة).

شعرت بالاشمئزاز لهذا الخطـــإ الإملائـــي الجـــارح وتمّنيتُ أن لا أدخل على واحدة منها.

أعلى الكراسي المرصوصة كانت تقف لوحة ســـوداء عملاقة كتب عليها باللون الأبـــيض تعليمـــات كثيـــرة، انطمست كل بياناتها باستثناء أرقام البنود، ونص البنـــد العاشر:

(رجال الأمن مكلفون بتنفيذ التعليمات بدقــة ومــن يخالفهم أثناء أداء واجباتهم سيعرض نفسه للمسؤولية).

وحتى عندما عاد مصطفى من الداخل بسرير متحرك ليس عليه أي رقعة أو ملاءة أو حتى قطعة كرتون فقــد كان يدفع السرير بمفرده. وبينما كان يحاول هو وسائق التاكسي رفعي إلى السرير دون مساعدة أحد من أفــراد الحراسة، نظرت إلى العربات العشر فاكتشفت أن عددها لم يتناقص رغم وصول العشرات من المرضى.

حسناً،أنا لم أستخدم عربة من تلك العربــات لأننــي أرفض مبدئيّاً أن أركب على خطإ، حتى لو كان لغويــاً بحتاً. دعوني أقل مثل هذا الزعم رغم أني لم أفهم لماذا أصر مصطفى على حملي على سرير متحرك لا علــى عربة لنقل المرضى.

هل كان مقتنعاً أني متّ؟

أردت أن أسأل السائق الذي أحــرق شــعر رأســي بسيجارته: لماذا لا يستخدم المرضى هذه الكراسي؟

لا لا، هكذا :

لماذا يمنعونهم من استخدام هذه العربات (لكي يكون سؤالي عادلاً). تذكرت في الحال رسالة قديمة وصــلتني من مثقف مصري يعيش في إمارة أبو ظبي. كنت قبـل عامين من موتي أكتبُ في الشأن السياسي المصري من خلال الإنترنت بانفعال شديد، وأتخذ موقفاً مــع طــرف سياسي ضد آخر. فجاء نص رسالته:

عزيزي الشاعر أمير، دع المصريين يتدبروا أمرهم، فأهل المحروسة أعلم بشعاب بلدهم. هززت رأسي عقب قراءتها : ليتني أعرفك، يا شعاب بلدي.

ما حدث الآن هو أن سائق التاكسي وضع السسيجارة في فمه ليتمكن من استخدام يده اليمنـــى، أيــضاً، فـــي مساعدة مصطفى لحملي على السرير. كان يضع يديـــه تحت رأسي ووجهه بالقرب من جبهتي. سمعت أصوات احتراق شبيهة بتلك الأصوات التي كنت أسمعها عنــدما أمشي في فصل الخريف بين الأشجار، في البعيد .. في وادي الضباب ، قريتي النائمة في اليمن.

قلتُ لنفسي:

إنه فأل سيء. أنا أؤمن بالطيرة بشدة وأحفظ شواهدها التاريخية مثلما أحفظ الشواهد الشعرية.

في الواقع أنا أحفظ الكثير من الشواهد في فروع وأصول كثيرة.

يا إلهي،هذه الخشخشة التي أسمعها في رأسي تعني أنّي قد أموت إلى مستوى أعمق بكثير من مستواي الراهن.أو أن شيئاً ما سيحدث لي: مثل أن الموجودين بالداخل سيبادرون إلى حرق شعر صدري وبطني وعانتي وإبطي لأسباب لا أفهمها.

إنه الخريف إذن. الخريفُ الذي يدخل في الشتاء.

إنها سحابته السوداء تتصاعد من أعضائي الشخصية.

يا لبؤسي.ما أشبه هذه اللحظة بحلم تلك المرأة التي أتت ابن سيرين لتقول له:رأيتُ القمر يدخل في الثريا، وسمعتُ منادياً يقول:أخبري ابن سيرين بذلك.

فسقطت اللقمة من يده وهو يصرخ: ويلَك أيتها المرأة. ثم مات بعدها بستة أيام.

يا للمصادفة،أنا مجرّد قش بشري يحترق الآن.وإذا لم يكن قد احترق ومات فمؤكد أن ذلك سيحدث قبل نهايـــة الأسبوع القادم.

ويلَكَ أيها السائق،لماذا فعلتَ بسيجارتك كل هذا!

(٥)

في تلك الليلة النائية، الخميس – ١ يناير، ٢٠٠٨م.

كنتُ أول من وصل إلى المقهى في وسط البلد. كان الجو ماطراً وشديد البرودة. وفي المقهى كان الناس ينزوون إلى الداخل مثل القنافذ والسحالي. وبشكل عام فإن المقاهي تفقد في الشتاء جزءً من وهجها،وتنزوي هي نفسها إلى داخلها. ويتسلل إليها المرتادون وهم محنيو الظهور، يضعون طاقيات ملونة على رؤوسهم وشيلانَ على أعناقهم،ونادراً ما يلبس سكان القاهرة قفّازات في الشتاء.

وقد حاولتُ بعد وصولي إليها بعامين أن أربط بين هذه المشاهدة وبين ارتفاع نسبة المدخّنين فيها، فلم أصل إلى استنتاج مقنع.

حاول عادل زكريا أن يعتذر عن الحضور:

– الطقس جحيم هذه الليلة.

- الجحيم هم الآخرون، كما يقول سارتر.

ضحكنا بشكل آلي،ثم أنهينا المكالمة بعد أن أقنعته بالخروج.وعندما وصل كان يمشي في الشارع مثل رجال الشرطة وهو يضع قفازين على يديه. كان آخر الواصلين وأول المغادرين.فهو الوحيد من بين مجموعتنا الذي يكتب القصّة ولذلك فهو لا يجد بيننا ،نحن الشعراء، السعة المرجوّة للحديث. وعندما يأتي موعد لقائنا الأسبوعي فإننا غالباً ما كنّا نسحبه إليه مثل لصوص يجرّون سفينة معطّلة في المحيط. وإذا ما حاول أن يبديَ رأياً في نص شعري فإنه سرعان ما يتعرض لعملية قمع من قبل محمد عيسى.

في تلك الليلة كانت عملية القمع بالغة، بعد أن أتهمه عيسى بسرقة عنوان قصيدة لأحد أصدقائه ووضعه كعنوان لنص قصصي أنجزه مؤخّراً.وبعد جدل قصير وعنيف ،كنت شارداً عنه، انتقل الحديث إلى النص. وما فهمته بصورة سطحية هو أن عيسى سخر من نص عادل زكريا بدرجة بالغة الشراسة. بعد صمت قليل، تخللته بعض المجاملات قام عادل عن الطاولة واستأذن

في المغادرة. لم أنتبه إلى ما كان يقوله من أعذار فقد كنت في تلك اللحظة أسمع أصوات أقدام كثيرة تمشي في تجويف صدري.

شردت قليلاً،أغمضت عيني. سمعت أصوات ريح حادة، كتلك التي تمر مندفعة في الصحراء ثم تدخل في أحفورة صخرية،أو في تجاويف شجرة عملاقة ملقاة على الأرض.

- ما بك، يا أمير؟

- لا شيء، فقط أشعر بالاسترخاء.

(كأنهم أعجاز نخل خاوية).. حركتُ شفتَيّ ببطء، ثمّةَ ريحٌ تعوي بين أسناني.فردت أصابع يدي الاثنتين على الطاولة وأنا أحاول أن لا أمكن أحداً من ملاحظة حركاتي،أو ما أشعر به.أحسست بريح باردة تنزل من على كتفي وتتزلّج على ساعدي،ذراعي، ثم تخرج من أطراف أصابعي.

- واو،ما هذا بحق الله؟

- خير

- ماذا هناك

- هل أنت بخير

- أمير، ما بك؟

- لا تقلقوا، مجرّد برودة صافية.

- برودة صافية.. ما معنى برودة صافية؟ علّق محمود.

- برودة صافية،ليس فيها ريح..أقصد: فيها ريح باردة. إنها صافية للغاية.

صاااااا..

وبدأت أتقيأ بعنف.

لا أدري ما الذي دفع مصطفى سيد لمصاحبتي إلى المستشفى دون الآخرين.

أنا لا أشكك في ما بيني وبينهم من مودّة، لكني كنتُ أفسّر علاقتي الخاصة بمصطفى بعبارة:

إننا غالباً ما نحب أولئك الذين يشبهوننا.

كنتُ قرأت هذه اللافتة في كتـــاب " تقـــسيم العمـــل" لدوركاييم. وكنتُ أضيف عليها عندما أستعرضها:

إن حبّنا لأناس بعينهم لأنهم يشبهوننا هو شكل مـــن أشكال عبادة الذات فنحنُ نحب فيهم صفاتنا لا خواصهم المميزة.أي أننا لا نضيف إلى دفاترنا غير صور مكررة لذاوتنا،فنحب أنفسنا أكثر من مرّة وبأكثر من وسيلة.

لن نتحرر حتى نحب أولئك الذين لا يشبهوننا.

تذكرت هذه المساهمات النفسية التي كنتُ أقـــدّمها لنفسي ولأصدقائي.آآه،لقد تذكرت كل هذا وأنا في غرفة الطوارئ.لا أدري كم من الوقت مرّ بين اللحظـــة التـــي تقيّأتُ فيها ووصولي إلى هذه الغرفة المخيفة.لا توجـــد ساعة على الحائط هنا.الناس هُنا لا يكترثون للزمن، مع أنه يمشي على وجوههم مثل سرب من النمل.إنّنـــي أراه يلفّهم مثل قطع الشاش والقطن.اندهشتُ لهذه الملاحظـــة قبل أن أسمع أذان فجر تلك الليلة بنصف ســـاعة. لقـــد رأيت وجوه أولئك الأطباء ومعهـــم الممرضات،تـــشيخ تدريجياً طوال الليل.كأن الذي مر هو عقدان من الزمن،

أو ربما قرنان. ارتعبتُ بحق. قلتُ لنفسي وأنا أرتجف: كم مضى على موتي؟

سألت الممرضة التي كانت تقف بعيدةً عني وقد أزاحت كل الستائر:

هل مضى على موتي وقت طويل.

لا أحد يسمعني.

يا إلهي.. ماذا لو أنهم أيضاً لا يرونني، وأنني لستُ هُنا من الأساس؟

ها، إنني أراهم بوضوح. إنهم يتحدّثون إلى بعضهم بطريقة آلية،ويتقدّمون من المرضى والمصابين ببرودة الثلج، بتعاسة النحاس.حاولتُ أن أزيح الملاءة التي غطتني بها الممرضة منذ قليل فلم أستطع.ممرضة صغيرة في السن، يبدو أنها لم تتجاوز الخمسة عشر عاماً ،تجلس الآن على قدمي اليسرى. كانت تتحدث إلى طبيبة تقف على مقربة من سريري. ومع كل عبارة كانت تحرك ردفيها بحركة دائرية شديدة البطء.أعني الممرضة،لا الطبيبة.

(ممنوع دخول أي ابن مرَة وسخة من دون تذكرة)

هذا الصوت الجهوري المخيف يبدو أنه يخرج من حنجرة عظيمة وعنقٍ ضخم. رأيت شرخاً ثانياً في المرآة المقابلة للسرير. يا لقوة موجاته الصوتية، خِفتُ. يبدو أن صاحب الصوت يتجوّل في الممر. أخيليس العظيم هذا سيتسبب في موتي بالصدمة الصوتية هذه المرّة.

ضغطت الممرضة على قدمي بثقل أكبر. خشيتُ أن أكون مصاباً باضطراب نفسي متعلق برغبة في تفسير كل شيء تفسيراً جنسيّاً. لا أتذكر المصطلح العلمي الذي يطلق على مثل هذا النوع من الاضطراب النفسي، لكنني أعرف أنه موجود في تخصص ما، في الطب السلوكي على الأرجح.

كنتُ أقرأ قبل موتي عن نوع نادر من أنواع الشذوذ الجنسي واسمه Necrophilia ويسمى أيضاً thanatophilia هو ممارسة الجنس مع الموتى. ارتبكتُ كثيراً ، أكثر من أي وقت سبق. فأنا أعرف أن الثاناتوفيليا هو طقس قديم مارسته مجتمعات دينية سحيقة بهدف التواصل الروحي مع الموتى. كانوا يزعمون أن ممارسة الجنس مع حديثي الموت، الذين لم يمضِ على

موتهم أكثر من يومين، بالإمكان أن يعيدهم إلى الحياة من جديد. تخيلتُ تلك الصور المنقوشة على الأواني الفخارية الأثرية ، التي تعود إلى حضارة موشيه في جنوب أفريقيا،حيث يظهر رجال الدين على شكل هياكل عظمية تمارس الجنس مع صبايا متوفّات.

لم يكن من الصعب علي أن أحدد الطرف المريض في هذه العلاقة :

إنه الشخص الحي، بكل تأكيد.

الآن.. يبدو لي أن الطرفين كانا مصابين بشذوذ جنسي حاد.أنا والممرضة التي تجلس الآن فوق أصابع رجلي.ربما كنتُ أنا المريض،الشاذ،وهي مجرّد فتاة طيّبة لم تفعل شيئاً غير لائق،إذ كل ما في الأمر أنها جلست على قدم رجل ميّت.لا،لا هذا ليس صحيحاً.أنا أحاول أن أزيح رجلي بعيداً وهي تجلس عليها بطريقة لا يمكن أن أفهمها خطأ.لم يسبق أن جلست فتاة على قدمي، ولم أجرّب هذا النوع من التواصل الرغبوي من قبل، لكنني مثار الآن بالفعل.

آآه تذكرتُ لماذا أتفاعل جنسيّاً مع هذ الفعـل..لقـد رأيت هذا المشهد من قبل ويبدو أني أجرّره في لاوعيي الآن.في حي الدقي بالقاهرة،كنتُ أزور مريضاً خـضع لعملية بتر لساقه اليُسرى،منذ خمسة أعوام.في بيته كان يشترط على الشغّالة أن تجلس على قدمه الوحيدة،اليمنى، لفترة تصل إلى خمس دقائق.لم تكن تفعل أكثر من ذلـك وتسمّر نظرها في وجهه.اطّلعتُ متأخراً على تفاصـيل هذه الممارسة الغريبة،بعد أن لاحظت على نحو متكـرر أنه كان يعرق بعنف ثم ينام مباشرةً فتقوم هي عن قدمه.

قالت لي الشغالة بعد أن حاصرتها بأسئلتي :

- الرجل بساق واحدة هو نصف ميّت. يهمني مـن الرجل النصف الأسفل،وهو الآن بنصف نصفه الأسـفل .. إنها صفقة تعيسة كما ترى.

- وهل ترغبينه؟ اعذريني..أقصد:هل ترغبين أصابع قدمه؟

- مممم،نعم.أجلس على قدمـه ليثـار هو،أمـا أنـا فتشغلني تعبيرات وجهه.

- وهل يكفي؟

- لعجوز مثلي.. يكفي وزيادة.

آآخ..إنني أعطي الوازع الأخلاقي كل صلاحياته لكنه تعطّل الآن فجأة.لست مسؤولاً عن هذا العطل.في الواقع: أصبح عديم الفاعلية.

لهنيهة ظننتُ أن الأخلاق لم تعد مطلوبة من الموتى، وأن خطايا ما بعد الموت لا تدخل في الحساب النهـائي للخير والشر لأن الصحف تطوى مع خـروج الـروح. استرخيت لهذا التفكير،وسمحت لأصبع رجلي الكبرى أن تغوص في مكان ما.

آآآآي،لقد كسرتِ ظفر أصبعي،عليك اللعنـة قـومي عني،ثم ارتبكتُ فجأة.ماذا لو أن روحي لـم تكـن قـد خرجت بعد؟هل من الأخلاقي أن أدس روحي في مؤخرة امرأة.آآه،سبق أن قرأت عن معتقدات غريبة تقـول أن الروح تخرج من الأصبع الكبرى،وأنهـا تتـأخر فـي المغادرة لفترة قد تصل إلى يومين كاملين بعد المـوت. ماذا لو أن روحي لا تزال الآن في أصبعي، هـل مـن

اللائق أن أشيعها بمثل هذا التشييع المهين.لا ينبغـــي أن أتساءل الآن عن صحة مثل هذه المعتقــدات فكــل مـــا يتذكره الموتى هو حقيقي،وكل ما ليس حقيقيّاً يسقط من الذاكرة بعد الموت مباشرةً.

لا أتذكر من هو صاحب هذه الفكرة. ربما كان هـــو أيضاً غير حقيقي لذلك فأنا لا أتذكره.

أنا ميّت،لا يمكن أن أنتهك حرمة الأحياء.لينتهكوا هم حرمتي كما يشاؤون،لم أعد آبه لشيء.سيقال يوم القيامة:

سرقوا ميّتاً،ثم أجبروه على اغتصاب ممرضة وطبيبة

يوم القيامة تبدو كل الأشياء غريبة وعجيبة.ســـيكون هذا العنوان لافتاً.وسأحظى بشفقة كاسحة من قبل الأنبياء والملائكة.ومن أصدقائي:محمود وخالد وعادل ومحمــد ومصطفى،الذين تركوني في تلك الليلة ليُفعل بي كل هذا البؤس.

قامت الممرضة بعد ما ســمعت أصـــوات صـــراخ وحركة أقدام مرتبكة وعنيفة في الممر.

إنه مصاب قادم.

حركتِ السرير الذي أنام عليه،أو:أموتُ عليه.ودفعته باتجاه ردهة صغيرة (٣ أمتار في ٤ أمتـــار) مرتبطـــة بغرفة الطوارئ عبر مدخل عريض،ومتصلة على نحـــو مستقيم بغرفة نظيفة،من الجهة الأخرى.كانت قدماي في اتجاه هذا الباب الـــصغير،ورأسي فـــي اتجـــاه غرفـــة الطواريء.

لم أتمكن من معرفة ما الذي يحدث الآن فقد امـــتلأت الغرفة بالناس:الأطباء والممرضات والعاملين والمرافقين والفضوليين.

–ليخرج الجميع خارج الغرفة،غير مسموح ببقاء أحد مع الحالات الحرجة.

بدأ الناس بالخروج.

(ممنوع دخول أي ابن مرَة وسخة من دون تذكرة)

كان كل شيء يحدث خلف رأســـي.آآخ،لأول مـــرّة تحدثُ أشياء خلف رأسي وأنا أعلم أنهـــا تحـــدث.لـــيس بمقدوري أن أقول:لأول مرّة في حياتي،فأنا الآن ميّـــت.

ابتسمتُ:حسناً،لأول مرة في ممـــاتي.يبــدو أن المــوتى يشهدون الأحداث بمؤخرات رؤوسهم. هذا يشبه مـ كنتُ أسمعه من جدّتي،عندما كان أبي في السعودية وكنتُ أنا في الجبل:

يوم القيامة يطمس الله الأعين،ويخلق لكل إنسان عيناً واحدةً في قاع رأسه،لأن الناس يحشرون حفـــاة عـــراة غرلا.

وكنت أقول لها بشقاوة لذيذة:سأمشي منحنياً،وســأرى بأم رأسي.

وكانت تقرص أذني بحصاة خشنة.

متُّ قليلاً،فقد كنتُ مرهقـــاً بحـــق بعـــد الـــصدمات الكهربائية التي تعرّضتُ لها.وعندما أفقت بعـــد دقـــائق معدودة (يبدو أنها كانت دقائق، هكذا خمّنتُ) طالعت في الحائط الذي أمام وجهي.مازلتُ في مكاني الجديد،وأمامي على بعد خطوات تقع غرفة صغيرة وأنيقة بها مكتبـــان، مكتب على اليمين بحيث لا يمكن أن يظهر من الجـــالس

عليه سوى جانب وجهه الأيسر،ومكتب في الواجهة،هو مكتب المدير.

[أ. د. حسني شحاته، مدير عام قسم الطوارئ]

لم يكن موجوداً في مكتبه،ومع ذلك فقد كـــان البـــاب مفتوحاً والنور مضاءً.خلف رأســـه،على الحائط،توجـــد لوحة إعلانات خمّنتُ أن مساحتها هي حاصل ضـــرب متر ونصف في متر ونصف.

انذهلت في البداية.ما هذا!إننـــي أســـتطيع أن أقـــرأ محتويات تلك الأوراق المعلقة على اللوحة مـــن مـــسافة تزيد عن ستة أمتار.

(فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد). كانت هذه الآية موجودة على صدر اللوحة ومكتوبة بخـــط أســـود مائل على ورقة إي فور.

أنا ميّت،بالفعل.لم أعد بحاجة إلى أدلة إضافية لأقتنع أني مت،فليست المرة الأولى التي أموت فيهـــا.بـــصري الحاد هذا هو بصر ميّت.الميت يرى مـــا فـــي الـــسماء (البصر يتبع الروح).واو، يا للكارثة.أنا أراكم،الملاءة

على وجهي لا تكفي لحجب رؤيتي.يا بشر،أيها النـــاس، أرجوكم..أنا لم آتِ إلى هُنا لكي تبرهنوا لي أني مت.لقد تأكدتم من موتي الآن فدعوني أمُت إذن.

دعوني أرجع إلى البيت لأواصل موتي.أنا مرهــق، صدقوني..مرهق جدّاً.

حاولت أن أغمض عيني،فلم أستطع.أردت أن أحرك كرة عيني للأعلى،لليسار،لليمين،للأسفل.فشلتُ،فــشلتُ. أرى في خط مستقيم فقط،كل ما يقع أمامي أراه،لا أدري لأي مسافة سيمكنني أن أرى الأشياء، لكني متأكدّ مـــن أنها ستكون مسافة خارقة للعادة.

حسناً، قلتُ لنفسي،لأنشغل بقراءة أي شيء مكتـــوب. وددت أن أقرأ جريدةً،فأنا أحب قراءة الجرائد في الأماكن المزدحمة وفي الضوضاء.

أطرح ضوضاء الجريدة من ضوضاء المكان،وتكون المحصلة:هدوء مطبق، فالناتج صفر.

مرّ وقت طويل وممل على مكوثي هُنا.

وقعت عيني على لوحة الإعلانات،أو بدأت أتنبّه للمكتوب فيها.اندهشت للمرة الثانية.

كانت الدهشة هذه المرة عميقة وصادمة.ما كل هذا المكتوب على اللوحة:

من اليمين إلى اليسار:

ورقة بعنوان:

(من أقوال الحكمة ، للحجاج بن يوسف الثقفي)

" والله لألحونكم لحو العصا ولأعصبنكم عصب السلم ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل.. يا بني اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الإماء إنما مثلي ومثلكم كما قال ابن براقة: متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم "

مسافة بيضاء في الورقة يظهر في آخرها سطر :

[أ. د. حسني شحاته، مدير عام قسم الطوارئ]

إلى اليسار منها،أيضاً: (من أقول الحكمة)

العبد يقرع بالعصا والحرّ تكفيه الإهانة.

إلى اليسار منها قصيدة لعنترة العبسي.هـي ليست قصيدة واحدة بل ورقة مرصوص فيها أبيات شعرية في الحرب والقتل لعنترة وقطري بن الفجاءة والسليك بن السلكة والمتنبي وأحمد شوقي،متداخلات في الوزن والقافية والمعنى، وكلها بعنوان:من أشعار عنترة.

وسيفي كان في الهيجا دليلي

يداوي رأس من يشكو الصداعا.

أبا هندٍ فلا تعجل علينا

وأنظرنا نخبّرك اليقينا

فإنك إن طلبتِ بقاء يومٍ

على الأجل الذي لك لن تطاعي

مشيناها خطى كتبت علينا

تخر لنا الجبابر ساجدينا.

... وإلى آخر القائمة،من مختارات شعر القتل والرجز والمنازلة في الحرب والحكمة،ممزوجة ومتداخلة بطريقة مثيرة للضحك. بإمكاني الآن أن أقول

أني ضحكتُ بحق عندما وصلت إلى البيت الرابع،قبل أن أكمل قراءة هذه المعلّقة العابرة للأشـــخاص والأمكنـــة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي رأيت فيها الموجودين في غرفة الطوارئ وهم يلتفتون إلى بعــضهم وعلـــيهم علامات استغراب واضحة ويبتسمون.

خمّنتُ أنهم سمعوا ضحكتي.

هل بدأت رحلة العودة إلى الدنيا؟

مرت دقائق على ضحكتي.توقفت عن التفكيـــر فـــي انتظار أي رد فعل آخر قد يقوم به أحدهم.انتظـــرتُ أن يأتي طبيب إلى سريري ليتأكّد من مصدر الضحك.

ولما لم يحدث شيءٌ عدت مرّة أخرى لمراقبة الحائط في غرفة المدير.

أهاااا...استطعتُ أن أتذكر شيئاً ما الآن.لقد ســـمعتُ همهمة عند رأسي فهمتُ أغلب أجزائها.ممرضة وطبيبة كانتا تتحدثان:

- ما الذي حدث منذ قليل؟

- سمعتُ أن الحكيمة ريهام كانــت ترتّــب مــلاءة السرير الذي بالقرب من الحمام، وضرطت.

- هاهاهاها.وهل سمعها الجميع؟

- نعم..شعرتْ هي بالإحراج فأقــسمت أن الــصوت خارج من الحمام.

- وهل علّق أحدٌ عليها؟

- لا،نظروا إلى بعضهم ثم ابتسموا بهدوء.

- ومن كان في الحمام؟

- لا أحد.منذ ساعتين ونحنُ نسمع أصواتاً غريبة بالفعل.ضحك وأصوات ريح وكلام غير مفهوم. وعندما نصمت تختفي هذه الأصوات.

- إذن،ليست ريهام؟

- لا ليست ريهام.وليس الحمّام.

- لا أفهم،ماذا تقصدين؟

- أنا أيضاً لا أفهم، ولا أحد يفهم. بصراحة:لا أحــد يهتم،فنحن في غرفة طوارئ ومن المتوقع أن نسمع أي شيء.أشعر بالنعاس،وهذا ما يخيفني.

عدت إلى متابعة اللوحة،وأنا أهز رأسيَ:

متى يغسل الأحياء عقولهم من الوهم.لماذا لا تفكرون بهذه البساطة:هذا الميّت الذي يحتقـركم أيتهـا الأوجـه البائسة،هو من ضرط في وجوهكم.

وهو من ضحك عليكم.(شاهت وجوهكم،ثم ضرط). حسناً،لستُ أنا من ضرط،لكن ألا يمكن أن أكون أنا؟

وضحكت هذه المرّة لمدة طويلة.ضحكتُ لأني تأكدت أن ريهام هي التي ضرطت وليس الحمّام،ولا أنا.

إن الطبيبة التي تسأل الآن هي ذاتها التي تطاير ريقها على شفتي،عرفتها من رائحة عرقها.

أتذكر أني دسست يدي اليمنى في إبطها الأيسر وأنا أحاول أن أدفعها بعيداً.وأن الممرضة التي تسـرد عليهـا الآن هي نفسها التي كانت تلعق فمي مثل جرو جائع.

أنا أشتمكم مثل كلب ضال،أيتها الأشياء الضالة.حسناً كلّنا كلاب.

وكنتُ أقول لنفسي:

مممم يبدو أن ريهام التي يتحدثون عنها هي التي كانت تجلس على قدمي.طفلة وضرطت،ماذا في الأمر!

كنتُ أفرك جبهتي بشدّة:

هل صحيح أن الأرواح تخرج من أصابع القدمين؟

لا..ليس كذلك.ما يخرج من أصابع القدمين هو الأرواح الشريرة. هذا ما كانت تقوله جارتنا "الشريفة" عندما اكتشفتْ فجأة أنها شريفة،أي خبيرة في علم الأرواح.

كانت تبلغ من العمر ٢٥عاماً عندما ابتدأت مهنتها الجديدة والمخيفة.ثم ظلت لمدة خمسة أعوام،قبل أن يتزوّجها أشهر مجذوب في القرية،تزعم أن جنّياً صالحاً يتلبّسها وأن مهمّته أن يساعدها في طرد الأرواح الشريرة من أجساد المرضى.

تخرج الأرواح الشريرة من أطراف الأصابع ومن أعقاب الأقدام.وإذا أصيبت المرأة الحامل بحالة مسّ فإن الروح الشريرة تنتقل إلى الجنين،ولا تخرج من جسده

قبل أن يجري عملية الختان،بشرط أن يذبح أهله عــشرة خرفان ويتصدقوا بلحمها.وإذا كان المولــود فتــاة فــإن الروح الشريرة تخرج مع أول دم حيض.

..الحمد لله، تذكرت الآن ما كانت تقوله لنا.

لكن:ما معنى أن ريهام تضرط بعد أن جلست علــى قدمي بوقت قصير،ربما ثلاث ساعات؟أخشى أن أكون قد نقلتُ إليها روحاً شرّيرة وأنها طردتها لسبب ما.أمي لــم تصب بمس شيطاني أثناء الحمل،مستبعد إذن أن تكون قد نقلت إلي روحاً شريرةً..وأنا لم أختن،فهل معنى هذا أن احتمال وجود روح شريرة بداخلي يظل وارداً.هل مــن الممكن أن أكون ممسوساً.

أعرف جيّداً،من أحاديث جارتنا الشريفة،أن الممسوس حين يموت فإن شيطانه يموت معه.الحمد لله علــى أيّــة حال،فقد تخلصت ريهام إما من الروح الشريرة أو مــن غازات سخيفة وهي الآن مسترخية على ما يبدو،ولا شك أن ذلك الطبيب الشرس، الــذي افتــرس الطبيبــة وراء رأسي لوقت كافٍ لنقل روح شريرة، يفكّــر الآن فــي

ضراط الممرضة وفي من يمكن أن يكون قد نقل إليهما روحاً شريرة هذه الليلة.اللعنة أيها المتاعيس،أخرجوني من هذه الدائرة المفزعة.ما رأيكم لو تضعونني في الحمّام،أو في غرفة المدير.

كنتُ مهتمّاً بمتابعة لوحة غرفة المدير.هذا ما يهمّني، فقد تأكدتُ الآن أن الوضع في غرفة الطوارئ سيبقى على ما هو عليه،لن أموت ولن أعود إلى الحياة قبل طلوع الصباح.قرأت الأبيات الشعرية من جديد..كانت هذه الأبيات تقفُ إلى الخلف من مكتب مدير قسم الطوارئ،كما قلتُ لكم منذ قليل.ويبدو أنه كان يستعين بها على أشياء ليس بمقدوري أن أخمّنها.بيد أني تخيلته خائفاً وغير قادر على إدارة هذا المكان،لذلك فهو يلجأ لخيال المآتة هذا،لكل هؤلاء الموتى ليقفوا معه.لوهلة أحسستُ أن هؤلاء الموتى المحتشدين على الحائط كلهم أصدقائي،جيراني..وأردتُ أن أقول له نيابة عنهم:

نحنُ الموتى لن نفيدك كثيراً، فعالمك هذا بالنسبة إلينا هو شديد الموات،ليس فيه رائحة الحياة،ولا نكترث لأحداثه.كم مر من الوقت منذ وصولي؟يبدو أنه وقت

طويل.أسمع حركة بداخلي،مثل تلك التي كانت تـوقظني قبل أذان الفجر.كنتُ أقرأ،عندما كنتُ أدرس الحديث على يد الشيخ أبي شهاب اليمني،أن الميّت يقـوم فـي قبـره للسؤال.فإذا كان من المحافظين على الصلاة تخيّـل لـه الشمس وهي عند الغروب،فيقول للملائكة:امهلوني حتى أصلي العصر.

أهاا!،قلتُ،إذن فالفجر يقترب.إن هذه الحركة بـداخلي هي دليل جديد على أني ميّت بالفعل.يا إلهي.لماذا تبدو كل دلائل موتي صغيرة وخفيّة.لماذا لا أموت بـصراحة مثل الموتى الآخرين؟كنتُ أتحدث بصوت مرتفع،وأسمع صوتي يأتيني من مكان بعيد.كان يهـبط مـن الأعلـى ويصعد من الأسفل،ويدخلني من كل الجهات.

الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا.

بعد صمت وارتباك عدتُ لأردد:

الناس نيامٌ فإذا انتبهوا ماتوا.

هززت رأسي الميّت:

كم أنت عبقري يا أدونيس.

ثم صلّيت على النبي لأول مرّة منذ بداية المساء.

(٦)

في تلك الليلة الزمهرير،من يناير-١- ١- ٢٠٠٨م.

عندما وصل محمود إمبابي إلى المقهى كان متـــأخراً كالعادة،وفي طريقه لا يرد على أي مكالمة بحجّة أنه لا يريد أن يكون خسارةً لأصدقائه:

- الصديق المكلّف لأصدقائه هو عدوّ مبين.

بادره محمد عيسى:

- محمود،أنت سبب هذا الصقيع.

- أنا سبب هذا الصقيع؟يبدو أن اسمي الحقيقي هـــو محمود ثقبُ الأوزون،وأنا آخر من يعلم.

ضحكنا بحق.كان أشدنا ضحكاً مصطفى سيد،أما أنـــا فكانت تفصل ضحكتي عن ضحكاتهم لحظات أقضيها في الاندهاش لطرافة تعليقات محمود.فـــي العـــادة عنـــدما نكتشف،مثل تلك الليلة،أن مزاج محمود رائق فإننا نادراً ما نسمح له بالاسترخاء.

- إنها ليلة من ليالي شهر زاد، قالها خالد بطريقـة أداء مسرحية،وهو يقصد أن محمود إمبابي الليلة فـي أروع مزاج له منذ شهرين.فهو للتو انتهى من أداء امتحانـات السنة الخامسة في كلية طـب القـصر العيني،جامعـة القاهرة.

قلتُ له :

- يا محمود،هناك عقيدة ريفية في اليمن تقول أن مـن يأكل من قاع " الحلّة " بيديه يعاقبـه الله بـالمطر يـوم زواجه أو يوم الانتهاء من امتحاناته.

- أو يوم موته،لكي لا يقرأ الناس على قبره سورة يس، علّق عادل زكريا.

لم نسمح لمحمود بالتعليق فقد حاصرناه هذه المـرّة. ليتني أتذكر كل ما قلناه في تلك الليلة. كانت ممتعة جدّاً، مع أني لا أتذكر منها أكثر من نصف ساعة.طلبتُ شاياً بالنعناع،وطلب مصطفى قهوة سادة،بينما أصر خالد على النادل أن يقدّم له كأساً من السحلب البارد.

- الليلة باردة، والسحلب لا يقدم إلا ساخناً.

- أريده بارداً. أقاوم البرد بالبرد.

ثم التفتَ إليّ :

- من هو القائل " الحديد بالحديد يفلح" .

- لا أدري.

- إذن فهو أنا.

بعد انصراف النادل بدأت أتحدث إلى الأصدقاء عن الثلاجة الكونية، وقصّة أصحاب الكهف.

قاطعنا محمود :

- لم أفق بعد من الصدمة، منذ الصباح.

- (...)

- أحد زملائي في الكلية سقط مغشياً عليه هذا الصباح أمام الدكتور في الامتحان الشفوي. نقلوه مباشرةً إلى غرفة الطوارئ، وكان قلبه قد توقف فعلاً. تسمى الحالة في الطب Cardiac Arrest، ويرمز لها بشفرة عامة هي كود بلوCode Blue أو الشفرة الزرقاء خوفاً من إثارة الرعب بين المرضى. تعرض زميلي لصدمات

كهربائية عديدة. كان يفيق ثم يتوقف قلبــه بعــد إفاقتــه بثلاث دقائق ، فيتعرض لــصدمة كهربائيــة وهكــذا. تكررت العملية أكثر من أربعين مرّة، تعرض خلالهــا لأربعين صدمة كهربائية. كنتُ حاضراً، في كل صدمة كان جسده يستقبل ٢٠٠ جول .. ٢٠٠ * ٤٠ = ٨٠٠٠ جول .. لقد احترق صدره تماماً، لقد تبخّر صديقي.

- مااات؟

- الموتُ راحةُ كل حيّ .. ليتنا نموت.عدد الصدمات وكمية الكهرباء التي تعرض لها ستحرّك مصنعاً بأكمله يا أمير.

- طيّب، أريد أن أفهم شيئاً ما : ما هــي الميكــانزم التي تعمل بها الكهرباء في حالات توقف القلب؟

تحدث محمود كثيراً، كان يبدو منكسراً في البدايــة، لكنه في منتصف الحديث نسي صــديقه وحوّلــه مــن " زميل" إلى حالة تستحق السرد ولا تمانع من اســتخدام التقنيات الدرامية أثناء ذلك. ذكر محمود أمثلة عديدة عن أناس ماتوا وأعادتهم الكهرباء إلى الحياة. انفعلنا لحديثه، وكان خالد يقاطعه بين حين وآخر :

- أديسون محيي الموتى.

- أسأل الله أن يمكّن أديسون من عمل الواجب معك.

لم نفهم عن ميكانيزم عمل الكهرباء في الجسد الميّت شيئاً.ولا فهمنا بالضبط ما معنى أن لقلب الإنسان كهرباء لكننا كنا مجمعين على متعة حديث محمود.

- إلى الآن لم أكتب شعراً في هذه الجزئية " الكهرباء التي تبعث الموتى من القبور"، قال خالد، لقد فتح محمود أمامي منطقة شعرية مدهشة.

- رد عليه محمد بسليقة مثيرة :

فلتبعثي يا كهرباءُ وجودي

وتنفسي في خافقي وحدودي

تدخّل مصطفى وسط حفلة من الضحك والتصفيق:

لا تفصلي قلبي عن الدنيا وإن

فصلتك أقدامُ (...) فعودي

أكمل خالد البيت الشعري :

لا تفصلي قلبي عن الدنيا وإن

فصلتك أقدامُ الزمانِ فعودي.

لا أدري لماذا لم نتفاعل بصورة درامية مع هذه القصة التي يرويها محمود،عن زميله في الكلية.هو أيضاً سرعان ما التحق بنا،وعدنا إلى فضائنا المعتاد. كنّا مجموعة من الشعراء،ومع ذلك فنحن قلّما نتحمّس للاندهاش للكوارث البشرية.كان كل شيء يبدو إلينا موضوعاً شعريّاً وحسب.وفي الجانب الآخر،كان الناس يتلقون نصوصنا بلذّة عارمة،دون أن يكترثوا للحزن الذي ينشِئ هذه النصوص.وهكذا كنا نمارس سادية متبادلة نحن وقراؤنا القليون.

بدرجة ما كنتُ ألمح هذا التساؤل على شفاه كل واحدٍ منا،ومع ذلك كنا نصرّ جميعنا على الاستمرار في مسلسل التواطؤ هذا إلى ما لانهاية.

كنا منهكين، ولكل منّا أسباب إنهاكه الخاصة. وكلما ارتفع ضحك أحدنا كنا نعلم في داخلنا أنه أكثرنا بؤساً وربما غمزناه جميعاً في لحظة واحدة دون أن ندرك أننا

نفعل ذلك. وهكذا لم تصمد هذه المأساة التي يرويها لنا محمود لأكثر من دقائق، فقد خلقنا منها ملهاتنا الخاصة، كما نفعل دائماً.أن نعيش فوق كل شيء،مثل ذلك الأمير العباسي الذي تناول غداءه،وربما استمنى،على بساطه المفروش فوق أجساد عشرات الأمراء الأمويين وهم أنصاف موتى.

في الواقع،عندما بدأ محمود إمبابي يروي هذه القصة شردتُ،وانفصلتُ عنهم.لا أدري كيف تسنّى لي أن أحفظ المساجلات الشعريّة وكل هذه التفاصيل الخاصة بتلك الليلة البعيدة،١ يناير،٢٠٠٨م..التي ابتدأت في روايتها لكم منذ ساعتين من الآن.

فبمجرّد أن سمعتُ كلمة " الصدمة الكهربائية " أحسست بشيء في داخلي يحترق.كنتُ أحاول أن أبدو جزءً من المجموعة،وقصّة محمود عن زميله تأخذ مكانها الملائم على طاولتنا البعيدة تلك،وفي الوقت ذاته كنت أتحسس صدري.كنتُ أشتم رائحة شعر يحترق،أسمع حكّة احتراق، لا يمكن أن تكون وهماً.

- ما الذي تفعله يا محمود؟

إنه يروي قصته وأنا أتحسس جسدي.لم يكن ينظـــر إلي، لكني كنتُ متأكّداً أنه كان يراني حتى من أذنيه لكنه يشيح ببصره بعيداً عني كما لو كان يتعاطف معي.

ما دخلي أنا بهذه الحكاية،قلتُ لنفسي.يـــا إلهي،لمـــاذا يبدو وكأنه يتحدث عني أنا؟

حاولتُ أن أتغلّب على ارتباكي بالاشتراك في الحديث مع الأصدقاء،فهو الضجة البيضاء التي ستخلصني مـــن الضجة التي بداخلي.

- ماذا لو افترضنا وجود ثلاجـــات كونيـــة كبيـــرة مسؤولة عن هذا الصقيع؟

وصل عادل زكريا في منتصف حديثي. كنتُ أشـــرد مع كل فكرة أقولها فمن الواضح أن الضجة البيضاء لـــم تخلصني من هذه الضجة الزرقاء التي بداخلي.

- يا إلهي،إنـــي أرى بـــشراً يحترقـــون بالـــصدمة الكهربائية.

شب نزاع بين محمد عيسى وعادل زكريا،انتهى إلى مغادرة عادل.كنتُ في تلك اللحظة أتثلج تمامـــاً.كانـــت

- أريده بارداً. أقاوم البرد بالبرد.

ثم التفتَ إليّ :

- من هو القائل " الحديد بالحديد يفلح" .

- لا أدري.

- إذن فهو أنا.

بعد انصراف النادل بدأت أتحدّث إلى الأصدقاء عن الثلاجة الكونية،وقصّة أصحاب الكهف.

قاطعنا محمود :

- لم أفق بعد من الصدمة، منذ الصباح.

- (...)

- أحد زملائي في الكلية سقط مغشياً عليه هذا الصباح أمام الدكتور في الامتحان الشفوي.نقلوه مباشرةً إلى غرفة الطوارئ،وكان قلبه قد توقف فعلاً.تسمى الحالة في الطب Arrest Cardiac،ويرمز لها بشفرة عامة هي كود بلو Code Blue أو الشفرة الزرقاء خوفاً من إثارة الرعب بين المرضى.تعرض زميلي

دفعتني ممرضة بعنف. أصبحتُ الآن في تلك الردهة الصغيرة الفاصلة بين غرفة المدير وغرفة الطوارئ. لا يوجد نور في هذه الردهـــة، هنـــاك ســـجادة صـــغيرة مفروشة، تدوسها الأقدام بلا مبالاة. لا يبدو أنها ســـجادة صلاة.

لتكن سجادة صلاة فليس من مصلحتي أن أنهي هـــذه الليلة في شيطنة هؤلاء القوم التعساء حتـــى المنتهـــى. أخشى أنني أحاكمهم الآن وأنا واقع تحت تـــأثير فكـــرة الفسكونت المشطور لإيتالو كالفينو،عن الخيـــر المطلـــق والشر المطلق، فأنا لم أفرغ من قراءة هذه الروايـــة إلا قبل لقائنا في المقهى بساعتين فقط. كنت أقرأهـــا طيلـــة النهار وأنا أستقل التاكسي أو أندس في الباص لأفرغ من متطلبات الروتين السخيفة التي تبادرني كل يوم.ترى أين الكتابان اللذان تركتهما في المقهى،الجنرال في المتاهـــة والفسكزنت المشطور،الآن؟

ربما كان هؤلاء الناس يصلّون بعد أن تنتهي حفلات الشواء،هذه التي يسمّونها الإنعـــاش. أغرانـــي الظـــلام الجزئي، فالنور لا يزال يأتي من غرفة المـــدير ومـــن

غرفة الطوارئ. قلتُ لنفسي: الآن سأنامَ، يبدو أن الشيء الجميل الوحيد هُنا هو أن البرد لا يصل إلى هذا المكان. فالمبنى هنا قديم وغرفة الطوارئ محشورة في ركن مخيف، لا يصله الأكسجين إلا متعباً. لكن : كيف رنّ تلفوني.

أهااا.. سؤال ممتاز : كيف رنّ تلفوني، ولماذا لم أسمع أي رنّة تلفون إلى الآن غير تلفوني.

سمحتُ لنفسي أن أغفو. سأجرّب نومَ الموتى. نومُ الموتى عبادة. وقد اقترفتِ منذ أول هذا الليل من الخطايا ما لم أقترفه في عام كامل، لحد أنني اشتركتُ في الفيتيشيزم منذ قليل، بأصابع قدمي.

الآن تحول العالم بالنسبة لي إلى لوحة بيضاء تدريجيّاً. ذاكرتي وحواسي أيضاً تحولت إلى لوحة مطلقة البياض، إلى tabula Rasa ،كما هو الوصف الفلسفي اليوناني للعقل البشري في بدايته المطلقة.

نوم الموتى يطمسُ كل شيء قبله، هذا ما بدا لي. حاولتُ أن أخرج من هذه النومة فلم أستطع. أحسست

بأطرافي ترتخي أكثر فأكثر، وبحواسي تبيضّ ،حتى دمي كنتُ أراه يمشي أمام عيني مثل الأفعى البيضاء. لم يسبق لي أن رأيتُ أفعى بيضاء في الدنيا، لكني تأكدتُ الآن من العقيدة التي كانت تقول :

كل ما لا يمكن أن يوجد في الخارج فذلك لأنه موجود في الداخل.

وغبتُ في المجهول، في العتمة، هناك حيثُ يمكن أن يكون موتي نهائيّاً وحيثُ يمكن أن تنام حواسي العملاقة وتتحوّل إلى حواس صفرية. رباااااه، ما أروع النوم بلا حواس، بلا ذاكرة، بلا رؤية ، بلا ألم، بلا خياال.. مثلما نامت ليال.

بعد فترة لا أدري طولها، ولا أين قضيتها، وجـدتني أتململ من داخلي. كنتُ أنهض في داخلي مثـل بعيـر مريض، وكلما نهضتُ بحركة إلى الأعلى سقط طـرفٌ من أطرافي إلى الهاوية.

إنني أسمع شيئاً ما ، من الواضح أنه كان السبب في إيقاظي من نومي العميق. إنه تلفوني يرن بنغمة خاصة،

خاصة جداً.فمنذ عامين وضعتُ لحبيبتي التي سبقتني في أغنية يمنيّة :

يا مروّح بلادك

ليل والشمس غابت

عادنا إلا انطربنا

والتلاحين طابت.

يغنيها أبوبكر سالم بلفقيه.ومنذ رحلت حبيبتي إلى إلهها الذي تحبه أكثر مني،في العام الفائت،وتركت لي رسالة على ظهر صورتي الوحيدة التي كانت بحوزتها :

أليف الروح،إليك أسرجتُ قلبي،وألفَ دربٍ أمدها لظلك..وتركتني أتساءل:هل الموت هو الدرب الذي سيتمدد عليه ظلي..

منذ تلك الساعة التي متّ فيها لأول مرّة،لم أعد أسمع هذه الرنّة.حتى الأغنية نفسها كنتُ أتحاشى سماعها لئلا توقظني من موتي.ما الذي يحدثُ الآن،كيف أسمع هذه الرنة من جديد،ما هذا الصوت؟لا يمكن أن يكون أحدُهم يستمع الآن إلى هذه الأغنية.

أنا لا أعرف عن المصريين الاهتمام بالفن اليمني،وقد تأكدتُ أول الليل،أو قبل أن أغرق في هذا النوم العميـــق الذي يقع في درجة تحتيّة للموت، أن هذه الغرفة خارجة عن نطاق تغطية شبكات الهاتف المحمول. وعلـــى أيـــة حال فإن الطبيب الذي سرق تلفوني من جيب بنطلوني قد أغلقه تماماً،نعم لقد رأيته بعيني يفعل ذلك.كنـــت أرانـــي بداخلي،أمسك بأضلاعي وأتّكئ على كتفي، أحـــاول أن أنهض. يبدو أن قراراً بداخلي قد اتُخذ أثناء نـــومي فـــي العودة إلى الدنيا بأي سبيل.

أوووه، ألا يمكن أن يعني هـــذا أن أمـــري انتهـــى فعلاً،وأني الآن في اليوم الآخـــر.وأن حبيبتـــي بمجـــرّد علمها بوصولي بادرت بالاتصال بي.هل كنتِ منتظـــرة ومتيقظة إلى هذا الحد.يـــا إلهي،لقـــد انفجـــرت عينـــي بالبكاء،مثل العساكر الجبناء في الحرب،مثل الريح فـــي البادية..هل تتذكرين هذه الجملة التي كنتُ أقولها عنـــدما أبكي أمامك،لأســـباب تعرفينهـــا جيّـــداً.هـــل لا زلـــتِ تتذكرين،أم أن نوماً خفيفاً قد حوّل ذاكرتك إلى Tabula Rasa..أرجوووووك، أنت لم تنامي،هاه؟

حبيبتي،أما زلتِ تحفظين رقم هاتفي القديم؟لكني غيرته بعد رحيلك مباشرة واحتفظت برقمك وبالنغمة الخاصة به في شريحتي الجديدة؟أين أنا الآن،أين أنتِ؟ ومن نحنُ في هذا العالم؟ما الذي كان يحدثُ لي منذ قليل.

رنّ الهاتف من جديد (أو:سمعتُ الأغنية للمرة الثالثة):

يا مروح بلادك، ليل والشمس غابت

عادنا إلا انطربنا، والتلاحين طابت

يا مروح وقلبي، منكمو ما رتوى

ارحمونا فضلية، من لهيب الهوى

لا تولوا وعيني، من لظى الحب ذابت

عادنا إلا انطربنا، والتلاحين طابت.

حاولتُ أن أتحرك من داخلي.في البداية قلتُ:هيّا يا قلبي انهض.

أردت أن أحرّك أحشائي:أيٌّ من أحشائي يمكنها أن تتحرّك؟

لا أعلم،فكل الأحشاء تتحرك لا إرادياً،كما تعلمت في مادة علوم الأحياء.الآن تجتاحني كل هذه الأشياء:

صوت الأغنية،نغمة الهاتف،وتلك الفتااااااة التي عشقتها حتى سقطتُ في الشوط الأخير أمام قبرها مثل حنطة الشتاء..

قفزت عبارة توم كروز في فيلم فانيللا سكاي إلى لساني:

ليس بمقدورنا أن نعيش معاً بعد الآن،فأنا متجمّد وأنتِ ميتة.

وبدأت أبكي من جديد.ليس وقتاً مناسبا للبكاء، قلت:

قاتلك الله يا أبا تمّام،لماذا تأتي الآن بقولك:

لولا الحياء لهاجني استعبارُ،ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يزار.دعني الآن يا أبا تمام أتدبّر حالتي.

أنا هنا القبر الوحيد،هؤلاء الموتى الذي سهرت معهم منذ منتصف الليل يعيشون.سكون مطبق على المكان،خمّنتُ إنها ساعة الاستراحة أو تبادل النوبات بين

العاملين. ولكن هل يتبادلون نوباتهم بهذه الصورة، دون تسليم واستلام.

لا أدري، ليس مهمّاً. عليّ أن أتدبّر هذا الجسد الــذي تركه هؤلاء السفلة ، ملائكة الرحمة الشياطين.

منحتُ جسدي فرصة للاسترخاء، تأملتُ في داخلــي، تخيلت حياةً جديدة تدبّ في أطرافي. يا إلهي ..

برودة شديدة تجتاحني الآن من أطراف أصـــابعي، تتسلق ساعدي وتدخل في كتفي إنها برودة صافية ، ليس فيها زيح .. أقصد : فيها ريح باردة.

إنها صافية للغاية.

صاااااا..

أحسست برغبة ملحّة في القيء، لكن بطريقة مختلفة هذه المرّة. عيناي تتحركان بسرعة مخيفة تحت جفنـــي من اليمين إلى الشمال والعكس، ومـــن أعلـــى لأســـفل والعكس. حركة شبيهة بحركة المغزل، بصورة دوّامـــة عاتية. لا يمكن أن يكون هذا وهماً، أين الأطبـــاء، أيـــن الممرضات .. أنا أعودُ من جديد.

كنتُ أرى أطيافاً لأناس كثيرين يركضون بـداخلي، يرتدون ملابساً ملوّنة، يغطون النوافذ بالستائر، يزيحون الأذى من الطريق، يلوّحون بأيديهم من على الأرصـفة. رأيتُ امرأة بيدها كاميرا صغيرة وهي تلـتقط صـورة واحدة لشجرة كبيرة.

رأيت صفحة ماسنجر لفتى وفتاة يشتركان في حوار جنسي عنيف.

رأيت رجلاً مسنّاً بيده حزمة خـضراء، يبـدو أنهـا حزمة جرجير. ما زال العالم كما هو لم يتغيّر، الـشبان يتخيلون الجنس، والمسنّون يودّون العودة إليه ولو عـن طريق الجرجير.

وبدأت أتقيّأ.

في البداية تقيّأت على الملاءة التي كانت تغطّيني.سال القيء على وجهي وعنقي. قفزتُ إلى الأمام مـع دفعـة القيء الثانية حتى وجدت نفسي جالساً علـى سـريري. تحرك السرير قليلاً إلى الأمام، واصطدم بالحائط.

لقد كانت المسافة بين السرير والحائط قصيرة جــدّاً، استنتاج لا يحتاج إلى حواس عبقريــة،وداعاً للحــواس الحادة،للانهائيات الموتى..

هيّا

تلفّتّ أمامي،عن يميني ويساري.مكتب مدير الطوارئ مفتوح لكنه مطفأ النور.الصالة التــي انحــشرتُ فيهــا اطفئت.غرفة الطوارئ لم يعد فيها سوى ضوء باهت آتٍ من الحائط،من ذلك الفانوس المخصص لقــراءة أفــلام الأشعة الطبّية.

أزحت عن جسدي تلك الملاءة القذرة ذات الرائحــة الميتة.أنا عارٍ تماماً،يــا للقــذارة.قفــزتُ مــن علــى السرير،حاولت،حاولت لثوان أن أستوعب أسئلة عديــدة قفزت أمام عينــي.أحســست بخــوف عميق،وبــسرعة انطلقت أفتّش عن بنطلوني في غرفة الطوارئ،فوجدتــه ملقى تحت السرير الثاني على يسار الداخل إلى الغرفة.

لا أثر للجاكت البيج الذي اشتريته بـــ ٢٥٠ جنيهاً منذ عام،ولا للقميص،ولا حتى لملابسي الداخلية.عدت إلــى

الداخل،إلى الصالة التي تفصل الطوارئ عن غرفة المدير.لبست بنطلوني،ولم أجد ما أغطي به نصفي الأعلى العاري.اللعنة،الفتى عاري الصدر..أنا لستُ ضرار بن الأزور.لا بد أن أفعل شيئاً.

في ركن الصالة رأيت روبين أبيضين،من الواضح أنهما يخصان طبيبين في الطوارئ.لبست الروب،فرأيت نفسي أشبه طبيباً..طبيباً خارجاً للتو من موت عميق.

مسحت بالروب الآخر وجهي وعنقي وصدري. مسحت رأسي أيضاً،فأنا لا أعلم ما الذي يمكن أن يكون قد تكدّس على شعري طيلة هذه الليلة،ولا أتصوّر مدى احتراقه منذ سجائر السائق حتى نومي هنا.كان صدري محترقاً،ولا تزال رائحة الشعر المحترق رطبةً.أغلقت أزرار الروب على صدري وبطني العاريين.دلفتُ إلى غرفة الطوارئ بخفّة،بحثت عن الجهة التي توجد فيها المرآة.الغرفة شبه مطفأة،ولا أدري أين هي هذه المرآة.

ربما انكسرت بفعل الصدمات الصوتية لذلك الشخص العملاق الذي لم أره إلى الآن. وغادرتُ إلى الممر.

حاولتُ أن أمشي في الممر كما لو كنتُ طبيباً.لا أحدٌ هنالك،الجميع أخلد للنوم،أو لمكان آخر.بالقرب من الباب سمعت صوتاً:

- لو سمحت يا دكتور.

التفت إلى الشخص الذي كان يركض خلفي:

- نعم؟

- أين غرفة طوارئ الجراحة؟

- في آخر الممر على يسارك.

- شكراً يا دكتور. هل رأيت ممدوح موافي؟دخل الليلة إلى غرفة الطوارئ بسبب طعنة في صدره؟

- لا.

وانطلقتُ أمامي في اتجاه البوابة الخارجية. تذكرتُ ذلك الشاب الذي كان يجلس على السرير المجاور لسريري لسريري.فعندما قلبتني الممرضة على جانبي الأيسر لثوان قليلة حتى يتسنّى لها وضع قطعة كرتون تحت ظهري،رأيت ظهره قبالتي.فيما كان أنبوب طويل

يتدلى من صدره إلى إناء شفاف موضوع تحت السرير. رأيت الأنبوب،ولم أر صدره بالتأكيد.وكنت أسمع الجراح يقول له:

اهدأ يا ممدوح وتوقف عن الصراخ حتى نستطيع أن نخرج كل هذا الخراء من صدرك.

كان الدم يجري من صدره إلى الأنبوب ثم إلى الإناء الشفاف.ورأيت على ظهره،بين كتفيه،وشماً لنسر عريض، وتحته وشماً مخططاً ليد ضخمة تمسك بمشعل.

أفسح لي الحارسان اللذان يجلسان عند البوابة الخارجية:

- تفضل يا دكتور،اغلق نوافذ سيارتك وإلا ستموت من البرد.

ابتسمتُ لهما :

إن شاء الله، نهاركم سعيد.

وفي داخلي سمعتُ صوتاً مهاجراً يجري من الأسفل إلى الأعلى: وداعاً للموت، سلامٌ على الموتى.

في ذلك الشارع نصف المضاء الـذي يـؤدي إلـى المستشفى انطلقتُ أركض على قدمّي.توقفت تحت شجرة جانبية،فتحتُ سوستة بنطلوني وأدخلت الـروب تحتـه بحيث بدا كأنه قميص.

تحسست جيوبي :

رائع،هنا عشرة جنيهات في جيبي الخلفي،الحمد لله أن جيبي ما زال على قيد الحياة.

كنتُ خائفاً من شيءٍ ما.تذكرت أني كنـتُ أتحـدث لأصدقائي قبل منتصف الليلة الماضية عـن أصـحاب الكهف:

ماذا لو أن مئات السنين قد مرّت، وأن الزمن توقـف على وجهي.

ولكن لماذا سألني ذلك الرجل منذ قليل عن ممـدوح؟ ربما كان الذي أعنيه ممـدوحاً آخر،والأمـر محـض مصادفة.

وكيف لم يكتشفني أحد،ولم يتغير العالم من حولي؟

قلت لنفسي:نادراً ما يتغير الزمن في هذه البلاد،إنه هو منذ آلاف السنين،وهم يفاخرون بذلك دون مواربة ولا شك.

مشيتُ قليلاً..رأيت جرواً صغيراً ينام مستنداً إلى عمود كهرباء.رآني توقفت فقام مسرعاً تجاهي وهو ينبح.كان صوته مثل صوت الماعيز.ربما من شدّة البرد.هل معنى نباحه أنه يراني وأني عدت من جديد

إلى هذا العالم.ليس كافياً فالكلاب والحمير ترى ما لا يراه الناس.(إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمير فاستعيذوا بالله فإنهما يريان شيطاناً).

ولكن الناس هنالك في البوّابة حيّوني منذ هنيهة وتمنوا لي نهاراً سعيداً،وتمنيت لهم نهاراً مثله.ما زالت التحية كما هي،كما تركتها ليلة البارحة ولم يغير الناس لهجتهم أو لباسهم.لكن الناس نسخة واحدة تتناسل عبر التاريخ،وكل قرن نسخة من الذي قبله،أو نسخة لجيل قديم لا يشترط أن يكون هو الجيل السابق له مباشرة.. هذا يقيني السابق، ولا بد أن هؤلاء نسخة لأجيال قديمة، قلتُ لنفسي.

ماذا؟

أيها الرفات البشري،فكّوا أغلالي..هل أنا أيضاً نسخة لإنسان قديم؟

أين مصطفى؟

أين يمكن أن أجد نسخةً بشرية من هذا الإنسان الذي أحبّه كثيراً،وأين هو الآن؟

أنا نسخة لإنسان قديم.. يا للسخرية!

لا لا.هززت رأسي،أنا ذلك الذي تقيأ مرّتين:مرة قبل منتصف الليل و مرة آخره،وكانت رائحة قيئه هي نفسها، وبها نفس بقايا الطعام.

مرت سيارة تاكسي،سمعت كالاكسَ شـديداً خلـف ظهري،أشرت إليها فتوقفت.قلتُ للسائق :

- شارع المنيل،لو سمحت.

- إن شاء الله.

ولكن، هل مازلتُ أسكن في المنيل؟

نزلت بالقرب من الحي الذي كنت أسكن فيه قبل الليلة التي متّ فيها.مررت ببائع الجرائد.إنه شخص مختلــف، غير الذي كنت أمر عليه كل صباح.

بــدأت أتــوجس.كــان البــرد شــديداً لدرجــة الزمهرير.طالعت في الجرائد،وقعت عينــي علــى أول عنوان :

الجمهور الحُر.

هتفتُ: يا إلهي،لقد تغير العالم.من أين جــاءت هــذه الجريدة.

نظرتُ إلى بائع الجرائد، ابتسم لي :

– ما كل هذا البرد المرعب! كما لو أن ثلاجة كونية انفجرت علينا الليلة الماضية.

هززتُ رأسي :

– نعم .. ثلاجة كونية.

علّق :

– لو مات الناس هذه الليلة فلن يتعفن أحد،ســيحنطهم البرد.

ابتسمتُ له،وتشاغلتُ بتمرير عيني على بساط الجرائد المفـروش أمـامي.ذات العنـاوين،ذات الأسـماء،ذات المواضيع، وذات المحررين.

أخذت نفسياً عميقاً. (الحمد لله)

سحبتُ جريدة بصورة عـشوائية.قـرأت المانـشيت العريض على صدرها :

هيكل :

أهم اختراع في القرن التاسـع عـشر هـو شـبكة المجاري. تصوّروا أن الملكة إليزابيث صانعة الأمجـاد وقاهرة أسطول أرمادا كانت تغتسل في العام مرّتين فقط.

آآه، يبدو أني موعود بهذه الملكة منذ البارحة. مددت يدي بالورقة فئة العشرة جنيهات. قلّبها الرجل في يده :

- هذه ورقة قديمة جدّاً.

ارتبكتُ،أحسستُ بأن جبلا كبيراً سقط بـداخلي الآن. تذكرتُ أصحاب الكهف (فاذهبوا بورِقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً.)

- لا أفهم،ما معنى أنها قديمة.

كنت أراقب حركة شفتيه،وبداخلي صـــوت جــاف : أرجوك قل إنها بالية، فقط.

- أقصد أنها بالية،لكن لا بأس سآخذها بثلثي قيمتها؟

أخذت نفساً عميقاً:الحمممممد لله.

ابتسمتُ له:نهارك سعيد،خذها كلها.

صافحني بحرارة،وهو يسألني:

- من أين أنت،ولماذا تبدو مرهقاً وغير مكترث لهذا الصقيع؟

- من اليمن.وأحس بالبرد مثلك،وأزيَد.

- ولكن ...

قاطعته بتحيّة مهذّبة،فأنا لستُ متأكّداً ممــا إذا كنــتُ مرهقاً أم لا،ولا حتى من أين أتيت.كما أني لم أعد أحس بالبرد كما كنتُ أفعل الليلة الماضية.

في طريقي إلى شقّتي،كنتُ أمسح على خدي،أنظر في راحتي :

أووه ما هذا ،ثم أمسح يدي على فخذي وركبتي.

ولكن:أين مصطفى سيد؟

ربما اشتبك مع رجال الأمن،فهو لا يحبهم كالعادة.أو ربما كان منتظراً عند الباب الخارجي مع ذلــك الحــشد الكثير من المرافقين والمرضى الممنوعين من الــدخول لأن الوقت (مخصص لاستراحة الأطباء والعــاملين) كما سمعتُ أثناء خروجي على هيئة طبيب.

- لا أتمنى أن يقضي مصطفى ليلة كهذه،قلتُ لنفسي. إن جووول المتربّص بالداخل لا يقيم احتراماً لــشاعر مهذب.ما الذي فعلته بي يا محمود،أخــشى أن تــصيب لعنتك جميع الأصدقاء.

لقد سمعتُك،وأنا أترنّح في داخلي،تقول لخالد:

أسأل الله أن يمكّن أديسون من عمل الواجب معك.

إياااااااااااك يا محمود.

وعندما وصلتُ إلى باب الــشقة تذكرت،بــسذاجة،أن محفظتي والمفاتيح وكل ما يخصني ليس بحوزتي الآن.

ضغطت على الجرس بشدّة،وأنا متأكد أن الرجل الوحيد الذي بالداخل هو الآن بالخارج يضغط الجرس بشدّة.

بعد دقيقة كاملة كنت أشعر بالإعياء الشديد.جلست على مقعدتي أمام الباب،اسندت ظهري إلى ظهره،ومددت رجليّ في اتجاه سطلي الزبالة المليئين بالعفن والرائحة النتنة.

أغمضت عيني وبدأت أغيب تدريجيّا،فسمعتُ في الأقاصي البعيدة،من تلك الدنيا السحيقة، تلك الليلة النائية، ١ يناير، ٢٠٠٨:

(ممنوع دخول أي ابن مرَة وسخة من دون تذكرة)

يبدو أن باب الطوارئ قد فتح من جديد لذلك الجمع، ولا بد أن مصطفى يبحث عني الآن في غرفة الطوارئ.

أرجوووك يا مصطفى،ابقَ في الخارج،لا تمُت بنفس الطريقة التي متّ بها.

أرجووك..

دخلتُ في سدرة النوم العميق،أو الموت المدهش.. ورأيت مصطفى يصرخ في أعماقه وعيناه مغلقتان :

أيها الأوغاد،دعوني أمت في مكان آخر.أنـــا أراكــم جيّداً، وأتقيّأ عليكم.ما الذي تفعلانه فوق جسدي.

ولا أحد يسمعه.

ومن بين أصوات غفيرة ســمعتُ صــوت زجــاج ينكسر..لا بد أنها تلك المرآة المعلقة على الحائط المقابل لسريرك يا مصطفى.

لقد انكسرت بفعل ذلك الصوت العملاق لشخص لن

تراه طوال هذا النهار.

اللعنة على حكاياك يا محمود، أيها المنجّم البائس.

اللعنة عليك يا جووووول..

٥- ٣- ٢٠٠٨م

القاهرة.

